سعيد العلمي

مريم

قصص قصيرة

دار الكرمل للنشر والتوزيع

Vision Libros

مريم (مجموعة قصصية)

سعيد العَلمي

الطبعة الثالثة – مدريد- فيسيون ليبروس Visión Libros، 2024

الطبعة الثانية – مدريد- فيسيون ليبروس Visión Libros، 2007

الطبعة الأولى – عمّان- دار الكرمل، 1995.

Segunda edición: Marzo, 2024

ISBN: 978-84-10039-33-9
Depósito Legal: M-xxxxx-2024

© Editado por VISION LIBROS www.visionlibros.com

Gestión, promoción y distribución: Grupo Editor Vision Net S.L.
C./ San Ildefonso 17, local, 28012 Madrid. España.
Tlf: 0034 91 3117696 // Email: pedidos@visionnet.es
www.visionnet-libros.com

Disponible en librerías físicas y online.

مقدمة

بقلم: خليل السواحري

قصص سعيد العلمي منتزعة من واقع الحياة ، وربما من تجارب المؤلف الشخصية، لذلك فهي عامرة بالصدق ومترعة بغنى التجربة وحرارتها.

ولست هنا بصدد تقديم ملخص لهذه القصص، وهو الأمر الذي يفسد على القارئ لذة المتابعة والإكتشاف، ولكنني أود أن أشير إلى بعض المضامين التي قدمها الكاتب في سياق يبدو أحياناً ممعناً في الوضوح (قصة التأشيرة) وأحياناً ممعناً في الإيحاء والرمزية (قصة الأشقر).

فالقصص التي تناول فيها القاص موضوع الوطن والغربة وهي ثلاث: التأشيرة، شاي أم قهوة، والطريق إلى فارو، لم يكن ثمة مناص من أن تكون واضحة المغزى والتناول، فقضايا الوطن قد لا تحتمل الترميز خاصة عندما تكتوي أصابع كاتبها بنار التجربة والمعاناة، فالحصول على التأشيرة أو جواز السفر للعودة إلى الوطن

كانت وما تزال هي المعاناة الكبرى للشعب الفلسطيني ابتداءاً بوثائق السفر منذ 1950 وانتهاءاً بعمليات الطرد الجماعية من الكويت عام 1990، وليبيا عام 1995، وما بينهما من عذابات لم يمر بها شعب من شعوب العالم حتى اللحظة.

إن النقد المشوب بالمرارة الذي وجهه، في قصة (شاي أم قهوة)، إلى مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية وآلية العمل فيها وما يشوبها من فردية وتسلط وفساد وجهل وغير ذلك، كان مباشراً وغير مباشر، ولكنه صادق كل الصدق، وهو نقد يمكن أن يوجه لكل السفارات العربية مع الأسف، ولكن ما يجوز عربياً لا يصح أن يجوز ثورياً وفلسطينياً، وهذا هو ما حاول الكاتب أن يقوله.

إن نكهة التجربة التي تبدو ذاتية فعلاً لفرط تفاعل الكاتب مع شخوصه، واستعماله ضمير المتكلم، نادراً ما تتهيأ لمعظم كتاب القصة، وهو ما حققه سعيد العلمي في هذه المجموعة. وبشكل خاص قصص الأشقر ومريم وعزرائيل والغريم، وكلها لقطات من واقع الحياة تنضح بالتجربة والنضوج وبعد النظر والحكمة الهادئة.

كنت أتمنى لو ابتعد الكاتب بلغته عن بعض الصيغ العامية، ولكن ما العمل ونحن نعيش نوعاً من ازدواجية اللغة التي تكبل التعبير أحياناً وتوقع السرد وليس الحوار فقط في تراكيب عامية لا فكاك منها.

وأخيرا فلا بد لي من الإشارة إلى القالب القصصي الذي اعتمده الكاتب في قصة "شاي أم قهوة" حيث استطاع أن يقدم من خلال الحوار (دون اللجوء إطلاقا إلى السرد) مضموناً قصصياً خالصاً لم يشعر القارئ خلاله بأي خلل قصصي أو اختلال في السياق أو استغراقاً كلياً في الحوار بحيث يتحول الشكل الفني إلى "مسرحية" بدلا من "القصة القصيرة"، وهي سمة نادراً ما تتحقق لكاتب دون أن تفقد قصته ملامحها القصصية كلياً أو جزئياً.

لقد كانت هذه القصص عموماً نبضاً من الحياة، حياة الكاتب أو أصدقائه أو معارفه، ولعمري ماذا تكون القصص غير ذلك؟.

عمّان 1995

التاشيرة

الصباح أنفاسه رقيقة والسماء زرقاء تحتضن الافق المدريدي كأم رؤوم ، وياسر يعي هذا كله ويشعر بوداعة الطبيعة في مطلع هذا النهار من شهر حزيران وقد بدأ يطرق أسماعه وقع خطوات صيف جديد هبت أنفاسه الأولى الدافئة على هذا الحي المتطرف من أحياء مدريد الشمالية. وانه لأمر معتاد في هذه المدينة القشتالية ألا يكون من فصول السنة سوى الصيف والشتاء، وكأن الربيع والخريف قد فرا منها منذ أمد بعيد ازاء سطوة الفصلين الرئيسين، فلا يدخلانها الا خلسة ولفترات متقطعة وقصيرة. كان ياسر يقبل على الحياة في تلك الساعة جذلان باستعراض الطبيعة لمحاسنها المتجددة بعد أن سكنت الرياح وانقطع المطر.

وحقيقة الامر أن حالة الجو لم تكن دافعه الوحيد للشعور بالبهجة، فلقد كان لديه سبب وجيه للغاية يبث النشوة في قلبه الشاب ويدعوه الى التفاؤل. فبانتهاء السنة الدراسية هناك في بيته هرج ومرج استعدادا لسفر ابنته لوطنه العربي لتقضي الاجازة الصيفية في كنف عائلتها هناك. وكانت مهمته في ذلك الصباح الحصول لها على تأشيرة سفر تتيح لها دخول البلد الذي تقطنه عائلته منذ سنوات طويلة.

كم طال انتظاره لهذا اليوم!. منذ بداية العام الدراسي وهو يعد

الأيام المتبقية لسفرها معلقا على هذه الرحلة آماله في تعليم ابنته لغة آبائها وأجدادها. وانه ليعتقد في قرارة نفسه أن الغربة التي كتبت عليه حتى الآن انما هي مظلمة لابنته منذ أن ولدت.

ولذا فانه كان يتربص المناسبات التي تتيح لابنته الاحتكاك بعائلته كي ينمي فيها أواصر الارتباط والانتماء لوطن منكوب هو في أشد الحاجة لأبنائه المنتشرين في أصقاع الأرض. وبالفعل، فها هي في سنتها الثامنة، وهي وليدة مدريد، تشعر بالغربة أسوة بأبيها وتتحرق شوقا للقيا أهلها، بل وتتحدث عن فلسطين، وهي التي لم تتنفس قط هواءها ولا شربت من مائها، وكأنها قد غادرتها لتوها. كل ذلك بفضل تربية منزلية متيقظة، وأتراب من الأطفال الاسبان في المدرسة وخارجها يصر بعضهم على تذكيرها بجذورها كلما سخروا من أصلها ومن اسمها الفريد في المدرسة وفي ساحة اللعب أمام البيت، وبفضل مدرس اسباني واحد يحقد على العرب ويبثها حقده هذا بكلام مغلف تارة وصريح تارة أخرى، مولدا لديها المزيد من مشاعر الانتماء لوطن بعيد.

وبذل ياسر قصارى جهده في تعليم ابنته شيئا من اللغة العربية وتحفيظها بعض السور القرآنية القصيرة وتلقينها حفنة من المعلومات البسيطة عن هذا كله مما يستطيع دماغها الصغير استيعابه بدون مشقة. ومع ذلك فهو مقتنع بأن نتيجة مجهوداته مازالت ضئيلة، فالمهمة جسيمة وهو ليس سوى مغترب عربي آخر... من مئات الآلاف من المغتربين العرب المقيمين في أوروبا والذين لا يلتفت اليهم مسؤول واحد على ضفتي اغترابهم، لا الضفة التي رسوا عليها ولا الضفة التي

غادروها.

كل هذه الافكار كانت كثيرة التردد على ذهن ياسر. انه يشعر كما لو كان مكبلا بالسلاسل فلا حيلة له سوى أن يظل مغتربا. ففلسطين مفقودة منذ شهدت عيناه النور لأول مرة، وباقي بلدان «الوطن» الكبير موصدة أبوابها في وجهه، أسوة بعشرات من رفاقه ممن حصلوا العلم في هذه الديار.

وبتردد هذه الافكار في خلده، بينما كان يقود سيارته عبر الشوارع المزدحمة بالعربات، أخذ حبوره الصباحي يتلاشى ووجد نفسه يضرب المقود بعصبية مشحونة بالمرارة لينفس بعضا من غليله المتراكم في أعماقه سنة بعد سنة. وأصابه اكتئاب مفاجئ عندما تساءل للمرة الألف في الأيام الأخيرة عما اذا كانت السفارة العربية التي كان يقصدها ستمنح ابنته تأشيرة الدخول التي تسمح لها بالسفر لزيارة الأهل. وبدون شعور أدار مفتاح جهاز الكاسيت فانسابت منه موسيقى عربية مسجلة على شريط يلازمه في سيارته منذ أيام. أراد بالموسيقى أن يطرد عن قلبه الهموم فقد سئم هذه الأفكار التي تقرع دماغه منذ سنين بلا هوادة ولارحمة . كان قد أدرك بالتجربة الطويلة أن أفضل السبل هو الانتظار، فرب طارئ يجدّ في بلاد العرب ورب أمر يتغير في أرجائه الفسيحة ويجعل السفر اليه ، وبين أقطاره، وبقدرة قادر ، أمر طبيعي يخلو من التعجيز، تماما كما كان في الماضي ، قبل أن يفتن العرب باختراع غربي هو جواز السفر وقبل أن يؤلهه حكامهم ربا جديدا يعبد كما أله بنو اسرائيل العجل.

الموسيقى المنسابة من جهاز الكاسيت تعيده الى الوطن بقوة...

بشراسة... صوت المغنية يألفه منذ نعومة أظفاره. يا للسعادة أن تزور سميرة جدها وجدتها وأن تعيش ولو لشهور قليلة على أرض عربية... أرضا تسمع فيها صوت المؤذن وهو ينادي الى الصلاة... أرض لايكون كل ما فيها ضد هويتها ودينها كما هو الحال عليه هنا. وعادت الغبطة تغمر قلبه من جديد وهو ينحدر بسيارته عبر شارع سيرانو. وأدار مفتاح الجهاز ليرتفع صوت مغنيته المفضلة ثم رفع عقيرته مشاركا اياها الغناء، والعربة تطوي المسافة المتبقية صوب السفارة العربية.

وصل ياسر الى تلك المنطقة المزدحمة ذات المباني الحديثة التي تقع فيها بعض السفارات العربية. وكاد أن يعجز عن العثور عن مكان يوقف فيه سيارته، وتجول بها طويلا عبر شوارع اختنقت فيها حركة المرور بحثا عن بغيته. وفي بحثه وتجواله مر أمام سفارة عربية أخرى تحيط بها بيوت الدعارة من كل جانب فترددت على شفتيه بصوت خافت وبدون سابق تفكير أو اصرار «الطيور على أشكالها تقع».

وأخيرا عثر على مكان لسيارته وحث الخطى نحو مبنى السفارة المنشودة وقد استحوذ عليه من جديد شعور مرير بالتشاؤم تجاه ما ينتظره خلف بابها. لم يعد يعي رقة النسائم التي كانت تداعب شعره ولا زرقة السماء وما تخللها من غيوم حلقت فوق رأسه بدعة، ولا زحف السيارات التي كان يمر بينها بخفة كلما اضطر الى ذلك. كان القلق المشحون بالخوف قد ملك عليه تفكيره. فهل ياترى يرفضون منح ابنته تأشيرة الدخول!؟.

وتوجه الى بوابة العمارة التي تضم مكاتب السفارة ثم حث

الخطى نحو المصعد. وفي وحدته بين جدرانه الأربعة تنبه الى نفسه وهو يهز رأسه بقوة للتنفيس عما كان يعتمل في صدره. انه يكره طرق باب أية سفارة عربية، فمعظمها لا ترحب ولا حتى بمواطنيها فما بالك بغيرهم من العرب. كلما اضطر الى التوجه لسفارة عربية عرف أن الله يريد معاقبته في ذلك اليوم فيجعل له سببا يقتاده اليها .وهذا السبب اما أن يكون مهنيا بحكم عمله أو لطلب تأشيرة أو لتجديد جواز السفر. وكم من مرة تساءل مع أصدقائه العرب عن السر الكامن وراء هذه العجرفة التي يجدها معظم المواطنين العرب في سفارات بلادهم أينما ذهبوا في أرجاء العالم.

توقف المصعد في الطابق الثاني عشر واندفع عبر ممر مفروش بالسجاد اصطفت على جانبه مرايا عملاقة ثبتت فوق جدران رخامية. وكان اندفاعه عبر الممر اندفاع من يسلم نفسه للجلاد حتى يفعل به ما يشاء، وبسرعة. فيريحه من دقات قلبه التي غدت صاخبة وموجعة. لقد عمل باصرار طيلة الطريق، منذ أن غادر بيته متوجها الى السفارة، على أن يبعد عن مخيلته علامة السؤال الكبيرة، التي هي أكبر منه ومن مشاعره الوطنية برمتها. ولكنه لم يستطع. والآن وقد أصبح داخل المبنى، لابل في الطابق الثاني عشر، لم يعد قادرا على مواصلة محاولته الهزيلة تلك، فكاد أن يصرخ ملء رئيته بسؤاله الكبير ذاك: «ترى هل يمنحون سميرة تأشيرة السفر؟!». سؤال رهيب يظل مسلولا فوق رأس كل من سولت له نفسه طلب تأشيرة دخول من سفارة عربية... اللهم الا اذا كان طالب التأشيرة غير مشبوه بانتمائه لبلد عربي. فدخول الجنة معروفة شروطه بالنسبة للعربي، مسلما كان أم مسيحيا... أما دخول العربي لبلد عربي فيعتمد على ظروف

لاحصر لها... ولايعلمها الا الله، اضافة الى السفير.

وازاء ذعره من سيف السؤال الكبير المسلول فوق رأسه وجد ياسر نفسه يستل بدوره سيف المنطق في محاولة يائسة للتخلص من الضيق الشديد الذي كان يرزح فوقه كما الطود، فكان يخاطب نفسه بالحاح: «كيف لايعطونها التأشيرة وهي لم تتجاوز الثماني سنوات!.. انهم يرفضون منح التأشيرة للكبار لسبب أو لآخر... أما للصغار فهذا غير معقول. هل يعقل أن يحرموها من زيارة أهلها وبلد عربي هو جزء من وطنها الكبير!». ويجد السيف المسلول يهتز فوق رأسه من جديد منذرا ومتوعدا.. أو تراه من الطبيعي أم من المنطقي أن يمنع الكبار من زيارة أهاليهم ووطنهم الكبير!... مهما كانت حاجتهم ملحة لهذه الزيارة!... أليس هو العار بعينه أن تضطر عائلة عربية الى اللجوء الى بلد أجنبي كحل وحيد لتحقيق اللقاء مؤقتا أو للم الشمل!. وتذكر ياسر بمرارة وهو يقف بباب السفارة صديقه جميل الذي رفضت نفس هذه السفارة منحه تأشيرة دخول لبلدها من أجل زيارة امه وهي تحتضر. ولم ينفعه تسليم موظف السفارة البرقية التي كان قد تلقاها من أخيه في نفس ذلك اليوم يحثه فيها على السفر الفوري ليتمكن من وداع أمه قبل رحيلها . ولم يتحرك ضمير واحد في أروقة السفارة أو في مكاتبها الفخمة. وتوسل جميل للموظف أن يسمح له بمقابلة السفير، ورد عليه الموظف بعد دقائق بأن السفير مشغول ولا يستطيع استقباله. وتذكر ياسر كيف روى له جميل والدمع في عينيه أنه غادر السفارة وهو يبكي كالأطفال. وتوفيت والدة جميل ولم يتمكن ابنها ولا حتى من تشييع جنازتها لأن مسؤولين ناقصي العقول ومقتولي الضمائر وعديمي القيم قرروا أن وفاة الوالدة لاتستحق كل ذلك

الاهتمام من طرف الابن المغترب. وجميل اليوم، وقد مرت سنتان على رحيل والدته، يصبح ويمسي لاعنا سفارات صماء وحكومات عمياء قائمة على مصير أمة خرساء.

باستعادة هذه الحادثة، شعر ياسر بغصة مريرة تجتاح حلقه. وفكر أن ما يهمه الآن هو تأشيرة السفر لابنته وأنه من الأجدى طرد كل هذه الافكار السلبية التي تنغص عليه صباحه هذا بعد أن بدا له في مطلعه مثاليا ومشرقا. ما فائدة كل هذا التفكير الذي طالما صدع رأسه! المهم أن تزور سميرة أهلها، وقد أعدت لها جدتها مدرسة لتعلمها العربية. من غير المعقول أن يحرموا طفلة من أبسط حقوقها. لكن السؤال الكبير تردد مجددا في أعماقه واهتز فوق رأسه مرة أخرى ذلك السيف الرهيب. واسودت الدنيا في عينيه وهو يتحقق من عدم جدوى المنطق في الوقت الذي كان يضغط فيه على جرس السفارة وينظر بتأدب مصطنع صوب العين التلفزيونية التي كانت تدرس ملامحه بصفته قد أصبح مشبوها لحظة وقوفه ببابها.

وحضرته لحظة انفتاح الباب مناظر من أفلام دراكولا والابواب التي تنفتح ببطء على مجهول مشحون بالرعب وبصرير تنخلع له القلوب. وخطا خطوة داخل السفارة فانغلق الباب خلفه تلقائيا وفكر للحظة أنه أصبح تحت سيادة الدولة صاحبة السفارة وأن الديموقراطية برمتها وحقوق الانسان وأشباه الانسان ظلت على الطرف الآخر من الباب وجاءه ضوضاؤها عبر النوافذ فشعر باشتياق حقيقي للشوارع التي ألف فيها الحرية منذ سنوات.

تقدم نحوه شرطي من مواطني السفارة مصوبا نحوه عينين حادتين

وسأله بفظاظة عن مراده في الوقت الذي لمح فيه ياسر شرطي آخر يرمقه، ربما بحنق، من مقعد وثير. وقال له الشرطي الأول أنه سيفتشه فأذعن ياسر للواقع فقد اعتاد مثل هذه «الحركات» في سفارات عربية كثيرة. ولم يكن ذلك التفتيش سوى أول متاعب ياسر في السفارة.

★ ★ ★ ★ ★

بعد نصف ساعة من دخوله السفارة غادر ياسر المبنى الشاهق وانخرط في ازدحام الأرصفة يمشي على غير هدى، واجما ناقما يأكل الغيظ قلبه. كانت سماء مدريد قد تلبدت بالغيوم من جديد وكانت طلائع الصيف تقهقرت أمام كرة الرياح الباردة. واستشعر الرجل بعض الراحة في النسمات التي كانت تهب عليه، وذرفت عيناه دمعتين وهو يفكر فيما عساه سيقول لابنته الصغيرة، وكيف تراه سيشرح لها أنه لن يكون هناك ثمة رحلة لزيارة أهلها. كيف ينتزع بنفسه الفرحة من قلبها بعد أن حدثها عن سفرها المنتظر طيلة الشهور الأخيرة!. أتراه يستطيع أن يقول لها أن سلطات دولة عربية رفضت السماح لها بالسفر لمجرد أنها عربية ؟. أي تبرير يقدمه لها فيقتنع به عقلها الصغير؟ . أيقول لها أن حكومة عربية تخشى على استقرارها واستمرارها من طفلة في الثامنة من عمرها؟. لربما، رغم طفولتها، سترد عليه ، كعادتها في اجاباتها التي تنم عن ذكائها الفطري، قائلة «يا لها من حكومات يا والدي... الهذه الدرجة هي مهزوزة وبدون جذور؟!». لقد رآى بعينيه في السفارة معاملات لمواطنين اسبان لمنحهم تأشيرات السفر ولما سأل الموظف المسؤول عن ذلك، بعد أن قال له هذا الأخير أن هناك أوامر من وزارة خارجية بعدم منح تأشيرات

دخول لأحد، رد عليه الموظف بوقاحة: «ألا ترى أنها جوازات سفر اسبانية ؟». ولكن جميل كان يحمل جواز سفر اسباني عندما أراد السفر لوداع أمه ولم يعطوه التأشيرة لمجرد أنه عربي مثلهم. واغرورقت عينا ياسر بالدموع من جديد وهو يردد بصوت مسموع كله أسى ونقمة. «يالنا من أمة تعيسة وجاهلة».

وشعر بمرارة الوحدة وسط ذلك الخضم من المارة والسيارات. وبغتة، سمع أحدهم يهتف به بالاسبانية مازحا: «ألا انكم لا تعرفون معنى الصداقة يامعشر العرب...» أهكذا تنقطع عني يا رجل كل هذه المدة؟!.

ورفع ياسر وجهه الى محدثه المباغت فعرف فيه أحد زملاء دراسته الجامعية ممن لم يعد لمقابلتهم منذ تخرجه قبل سنوات. وسر ياسر باللقاء وطرأت على وجهه ابتسامة اذ أخذه صاحبه بالاحضان مربتاً على ظهره بقوة كما هي العادة الاسبانية عند لقيا الاصدقاء. وانفرجت أسارير ياسر، فكم كان بحاجة في تلك اللحظات الى التخلص من المرارة الشديدة التي بثتها في قلبه السفارة العربية . ورد ياسر على صديقه وهما بعد في فرحة اللقاء: «معك حق يا فيرناندو. ان معشرنا لايعرفون ولاحتى معنى الأخوة»، فما بالك بالصداقة. هيا بنا .

1984

الطريق إلى فارو

الطريق من لشبونة إلى فارو طويلة نوعاً ما، تجتازها الحافلة بخمس ساعات. والساعات التي يقضيها فارس على متن حافلة أو قطار هي من أمتع أوقاته، فليس هناك ما يتعين عمله أثناء السفر اللهم إلا القراءة، أو الإسترخاء وتأمل المناظر الشاردة عبر النافذة، وما يتخللها من وجود إنساني يحول دون تحوّلها إلى مجرد صور عابرة. وهناك أيضا تأمل الركاب في عالم الحافلة الصغير، والعودة إلى ذكريات الوطن. والواقع أن المناظر في هذا البلد بطبيعتها وأناسها، وتأمل ركاب الحافلة، هما في كل أسفاره مفتاحه غير الإرادي إلى ذكرى الوطن والأهل، إذ يتفرغ لتصور وجوه زوجته وأطفاله الأربعة، وكثيراً ما يتمكن من رؤيتها واضحة جلية وهي تشع نوراً عبر طبقات الذاكرة.

سنتان مضتا منذ أن أبعِدَ فارس عن بيته وأرضه ووطنه. سنتان مرّتا كان لهما طعم العلقم الذي ما زال ناشباً في حلقه. أربعة وعشرون شهراً بالتمام والكمال انقضت منذ أن أخرجه الإسرائيليون من المعتقل بعد أن قضى فيه سنوات من الحبس الإداري، دونما تهمة ولا محاكمة. نعم، أخرجه الإسرائيليون من معتقله وأعطوه مهلة أربعة عشر يوماً لمغادرة بلده، أو العودة إلى سجنهم.

وانطلقت به الحافلة من محطة الباصات في المدينة العتيقة، ذات

الأبنية العريقة والسقوف القرميدية والساحات الوديعة والأحياء الشعبية، وأخذت وجهتها جنوبا صوب جسر الخامس والعشرين من أبريل الذي تبدأ بعده الطريق السريعة المؤدية الى الجنوب البرتغالي وعروسته فارو.

ولم ينتبه أحد من ركاب الحافلة الى وجود سيارة صغيرة حمراء اللون انطلقت خلفها حال مغادرتها المحطة عبر البوابة الكبيرة .

وبتحرك الحافلة التي لم يخل مقعد فيها من راكبه نظر فارس إلى الساعة في رسغه الأيسر فوجدها تشير الى تمام العاشرة صباحا، وتذكر المهمة التي تنتظره في فارو حيث دعته إحدى جمعياتها الثقافية الرئيسية لإلقاء محاضرة هناك عن آخر التطورات في القضية الفلسطينية أمام جمهور من مثقفي المدينة في تلك الليلة.

ومن الطرف الجنوبي للشبونة، التي يعشقها فارس منذ أن عاش فيها طالبا للعلم ويعتبرها من أجمل مدن الدنيا ، بطلتها المهيبة على مصب نهر تاجو ، دلفت الحافلة إلى مدخل جسر الخامس والعشرين من أبريل الذي يمتد شامخا في الأعالي الشاهقة، معلقا فوق المصب الذي يبدو في اتساعه بحرا.

وخلف الحافلة ، على بعد نحو مئة متر منها ، انتظمت السيارة الحمراء فوق الجسر الحديدي. كان الوقت شهر نوفمبر والسماء معظمها غائمة والبرد مسافر خلف نوافذ الحافلة، وكل شيء داخل العربة الوثيرة يدعو فارس الى التدثر بلحف الذكريات. وتدفق سيلها بين صدغيه تدفق النهر عن يساره في عنفوانه الأخير قبل أن يلفظ أنفاسه في الخضم الممتد على يمينه حتى اللا نهاية. وجوه زوجته نوال

وابنه نضال وابنته هناء وليلى وطفله منتصر، الذي لم يره بعد، تومض في مخيلته بقوة وإلحاح، بشكل لم يعهده من قبل. وتذكر كم كان مريرا ذلك اليوم الذي غادر به المعتقل وخرج إلى الشارع أكثر تكبيلا مما كان عليه بين يدي سجانية. كان ذاك قيدا كبيرا هائل الثقل، لا نهائي الحلقات، يلتف حول كل عضو في جسمه ويدق روحه. وكان لذاك القيد إسم كريه: الحيرة... فما عساه فاعل وقد تخلص من الإعتقال والتعذيب والإهانة اليومية وأصبح واقفا على باب السجن بين أهله في موقف الوداع بدلا من اللقاء!.

وارتد الى المنظر المهيب عبر نافذة الحافلة، والسفن الكبرى تتسلل من تحت الجسر صغيرة الشأن. وكم من مرة تأمل هذا المشهد إلا أنه مازال يبهره إتساع النهر عند بلوغ مصبه إتساعا مهولا، كما لو أنه يحاول جاهدا احتواء المحيط، ولكنه لا يستطيع في النهاية سوى التلاشي في أعماقه الوحشية. أما لشبونة فكانت تمتد على مد البصر، بشخصيتها الفريدة ونشاطها الزاخر، وبواخر كثيرة ترسو على ضفتي المصب أو تمخر عباب مياهه. وكان يرى من الحافلة عبارات الركاب تجتاز النهر من ضفة الى أخرى حاملة على متنها آلاف البشر في سعي الحياة اليومية.

وتذكر فارس فجأة جلسته قبل ذلك بساعتين في مقهى «إيلتيميل» الواقع على ضفة المصب، عند محطة العبارات الرئيسية. وتذكر من جديد الرجلين الذين كانا يجلسان غير بعيد عن طاولته ويراقبانه خلسة وهو يتظاهر بعدم انتباهه لهما. رجلان في الثلاثينات من العمر أحدهما أسمر والآخر أشقر في خديه احمرار. كان فارس

قد لاحظ لأول مرة أن الرجلين كانا يلاحقانه عندما توقف في ميدان «براسا دو كوميرسيو» قرب محطة العبارات، لشراء بعض الصحف، وتأكد من ملاحظته تلك عندما اجتاز الميدان والشارع الرئيسي الذي يفصله عن المحطة ودلف الى المقهى، إذ لم تمر سوى لحظات حتى شاهد دخولهما خلفه ووقوفهما بالباب يتفحصان الزبائن داخله حتى وقع نظرهما عليه جالسا إلى طاولة ملاصقة للنافذة الكبيرة المشرفة مباشرة على مياه النهر، فسارعا الى إتخاذ مجلس لهما.

واعتدل فارس في جلسته في الحافلة وشعر بارتياح إذ تخلص من مطارديه وراح يبحث في المنظر المترامي أمامه عن الساحات الخضر القليلة التي تتخلل كتل المباني في المدينة العتيقة الممتدة على التلال تحت قدميه ، متعرفا على بعض معالمها ، حتى توارت عن نظره بشوارعها الملتوية والمتعانقة والمتفرغة في كل اتجاه. وبلغت الحافلة نهاية الجسر وانفتحت أمامه الحقول والسهول، وبدت له خضرة البر متفجرة بديعة بمروجها وأشجارها وبساتينها. تماما كبساتين القرى في أرضه الشكلي، والتي مازال أهله يحنون عليها فتزهر لهم وتثمر. وحضرته من جديد باقة الورد التي استقبلته بها عائلته على باب المعتقل وتلقاها من يد إبنته هناء. وتذكر النقاش الذي دار بينه و بين زوجته في ساعة متأخرة من الليل، يوم غادر السجن. هناك في غرفة الزوجية لم تنعمه ولا حتى لحظات النشوة الخارقة في أحضان نوال التي توهجت بين يديه من طول الإشتياق. كانت المرارة ناشبة بروحه وبقلبه وهو يعي أن الفراق صار حكما نافذا، تماما كما يعي المحكوم أن ساعة المشنقة أزفت ولا مندوحة عنها .

- نوال.

- نعم يا حبيبي.

- السفر جنون.

- .....

- كيف أفارقكم؟!. في السجن كنت أراكم من وقت لآخر. أما إذا سافرت، فمن يدري...

- .....

- لمن أترككم يا نوال؟ الى أين أسافر وهذه هي بلدي؟!

ومازال يرى عينيها الدامعتين وهما تتشبثان به كما لو أنه كان على وشك أن يطير من بين يديها، وإلى الأبد. وفاضت عيناه هو الآخر بالدموع وبكيا معا بصمت وحرقة .

وتوقفت الحافلة بعد الجسر في محطة إجبارية للحصول على تذاكر المرور في الطريق السريعة المقبلة . وأجال فارس النظر لأول مرة في الركاب من حوله وفكر للتو أن للبرتغاليين شبه كبير بالعرب، وكيف لا والعرب من أجدادهم. وكم من أحاديث ومناقشات دارت بينه وبين البرتغاليين بهذا الشأن. ثم خطر له أنه لربما يوجد بين ركاب الحافلة من يتعقبه وأن الإفلات من مطارديه في لشبونة كان سهلا لدرجة تدعو الى الريبه. ولكنه كان قد تعمد أن يكون أول من يصعد الى الحافلة في محطة الباصات كي تتسنى له فرصة التفرس في وجوه باقي الركاب. ولم يجد بينهم أحد مثير للريبه، ومعظمهم من النساء والمسنين. وكانت هناك إمرأة لفتت نظره بشكل خاص عند صعودها

الى الحافلة لروعة جمالها وأناقتها، لكنها لم تلتفت إليه عندما جلست في مقعد عند الممر بين صفي المقاعد ، على مرآى منه. أما على يساره فجلست سيدة بدينة ما أن ركبت الباص، وقبل أن يغادر المحطة، حتى أخرجت من حقيبة يدها خبزا وشقته بمطوى صغيرة ودهنته زبدا ومربى ثم راحت تأكله بشهية ونهم غير آبهة إطلاقا بالنظرات التي انصبت عليها. وما أن تحركت الحافلة حتى كانت قد انتهت من التهام تلك الشطيرة وراحت تقشر أجاصة كبيرة بعناية فائقة وكأنها كانت تخش أن تجرح الفاكهة. وعند وقوف الحافلة عند محطة التذاكر أخرجت السيدة من حقيبة يدها الضخمة علبة كتب عليها إسم أحد محلات الحلويات المعروفة في لشبونة، وفكت الخيط الذي كان يربطها ، وتناولت منها بضعة قطع من الحلوى البرتغالية التقليدية التهمتها بكاملها . إنهم مثل العرب يا نوال... يحبون الأكل، ولكننا نخجل من تناول الطعام بهذه الطريقة والعيون ترقبنا من كل جانب، بينما هم لا يعرفون هذا النوع من الخجل، ولا أنواع أخرى كثيرة طالما عقدت حياتنا، فالناس هنا على سجيتهم كما لو كانوا دوما في بيوتهم... ترى كيف حال بيتنا يا نوال. وعاد الى آخر ليلة قضاها في بيته قبل السفر الى البرتغال... حاول في هدأة الليل أن يقنع نفسه ويقنع زوجته بأن السفر خطأ كبير وأنه يجب أن يبقى في فلسطين، حتى لو كان مستقره السجن ومصيره التعذيب والمهانة اليومية. ولكن نوال أصرت على القرار الذي توصلا اليه قبل ذلك بأيام والذي كان قد تشاور بشأنه مع أشقائه ،أشقائها فأجمعوا عليه دون استثناء. قالت له في تلك الليلة العصيبة

- بل تسافر الى البرتغال، فهي بلدك الثاني الذي درست فيه

لسنوات والذي زرناه معا عدة مرات ولنا فيه ذكريات حلوة. لن تكون هناك غريبا يا فارس. إن أصدقائك وزملاء دراستك يلحون عليك بالسفر الى بلدهم منذ فترة طويلة وقد أعدوا لك كل ما تحتاجه كي تكون إقامتك هناك خالية من التعقيدات . لا تضيع هذه الفرصة يا فارس، إنني لا أريدك إطلاقا نزيل السجن بين يدي هؤلاء السفلة.

- ولكن بقائي هنا كفاح وجزء لا يتجزأ من الإنتفاضة. مئات غيري قتلوا أو قتل أولادهم أو ذووهم، أما أنا فما زلت على قيد الحياة ويجب أن أقاوم المحتل بأي شكل، حتى ولو داخل السجن .

- وهل تريد مني أن أنتظر حتى يؤدي التعذيب الى تشويهك أو موتك. أنظر كيف انهارت صحتك من التعذيب. هل ننتظر حتى تموت بين يدي إسرائيلي كلب يتمتع بتعذيبك، فماذا تكون قد نفعت وطنك بموتك هكذا ؟.

دار بينهما في تلك الليلة نقاش تكرر كل يوم بعد خروجه من السجن، فالحيرة كانت أحيانا تشل تفكيره. كلما نظر الى أبنائه انفطر قلبه لوعة وحزنا. ولكنه كان يؤمل النفس بالعودة الى وطنه وبيته في وقت قريب حيث كانت قضية سجنه ثم إبعاده المموه قد أثارت اهتماما في الأوساط الجامعية الأوروبية، لاسيما في البرتغال التي تخرج من جامعاتها بدرجة الدكتوراه قبل ذلك بخمسة عشر عاما.

وتابعت الحافلة طريقها تطوي المسافات نحو ساحل الشمس المشرقة جنوبي البرتغال حيث كانت بانتظاره فارو الوادعه، عروس البحر التي قضى فيها أجمل أيامه مع نوال عندما سافرا اليها في شهر العسل ، بعد تعيينه أستاذا في كلية النجاح في نابلس. كانت تغمره

كل سعادة الدنيا في تلك الأيام إذ عاد لأرض وطنه نهائيا وإذ ولت سنوات الدراسة والتغرب، رغم حلاوتها، وإذ وجد لنفسه مي التعليم العالي دورا مهما يلعبه في كفاح شعبه ضد المحتل الأجنبي.

كان فارس منذ وصوله الى البرتغال، حيث عين مؤقتا محاضرا مي تاريخ الشرق الأوسط في جامعة لشبونة، لا يكف عن المشاركة مي الندوات والمؤتمرات والبرامج الإذاعية والتلفزيونية والكتابة في الصحف والمجلات، في شرح متواصل ودؤوب لقضية شعبه ووطنه. ولطالما قالت له نوال في نقاشهما المتكرر أن سفره للبرتغال ضروري للمساهمة في تعريف العالم بمحنة شعبه وعدم ترك الساحة هناك خالية للصهاينة يرتعون فيها كيفما شاؤوا.

وأخرج فارس من جيبه رسالة تسلمها من زوجته صباح ذلك اليوم وراح يقرأها للمرة الثالثة أو الرابعة. آه يا نوال لو تعرفين ما أعانيه من وحدة في هذه البلاد. تتحدثين في هذه الرسالة عن وحدتك واشتياقك لي، فماذا أقول وأنا هنا بدونك وبدون الأولاد، بلا قريب ولا حبيب... إن نظرة واحدة ألقيها على إبننا منتصر، الذي لم يرني بعد ولم أره، لهي كفيلة بمنحي القوة الكافية لمجابهة الظلم كله. وأخرج من مظروف الرسالة صورا لزوجته وأبنائه الأربعة، وتأملهم طويلا واحدا واحدا. نوال بوجهها الوضاء، الذي بدا أنه اكتسب شحوبا، وبشعرها الأسود وعينيها البراقتين بالذكاء والكبرياء، وابنه الأكبر نضال دو الثلاثة عشر عاما، يقف في الصورة كعادته مرفوع الرأس ينظر الى الكاميرا بتحدٍ، له طلعة أمه البهية. وهناء ، ذات الأحد عشر ربيعا بشعرها القصير ومسحة الحزن التي تكسو وجهها. وليلى ،

ذات الثماني سنوات والعينين اليقظتين والشعر الذهبي والإبتسامة الدائمة التي لا تفارق وجهها. هي أشد أبنائه شبها به. وتوقف طويلا عند رسم طفله الصغير منتصر الذي ولد في غيابه. أترى سيكتب لنا اللقاء يابني!؟... وشعر بكل علقم الدنيا في حلقه. ولا يدري كيف تذكر، وهو يتأمل عيني طفله في صورة له بمفرده، ذينك الرجلين اللذين طارداه في لشبونة ومراقبتهما له في مقهى «إيلتيميل». كان في المقهى ينقل بصره خلسة بين طيور النورس التي كانت تحلق فوق مياه المصب النهري، خلف زجاج النوافذ ، في حركة دائمة لاهدوء فيها ولا استراحة، وبين طاولة الرجلين الذين أخفيا عيونهما خلف نظارتين سوداوين. ومع رفرفة الأجنحة البيضاء والرمادية بحثا عن الرزق تحت صفحة المياه القذرة كان خفقان قلبه يزداد سرعة وقوة وهو يخشى أسوأ العواقب . لطالما حذره أصدقاؤه العرب في لشبونة من الإسرائيليين بعد أن أصبح له دور مرموق في مجابهة دعايتهم وأكاذيبهم في البرتغال. بل إن رفاقه وأصدقاءه البرتغاليين أنفسهم رددوا على مسامعه مثل هذا التنبيه وذكروه بأن عدوه يؤمن بشدة بجبروت الإعلام في تزييف الحقائق وأنه لهذا السبب لا يقبل بأن يشرح الفلسطينيون حقيقة قضيتهم للعالم. وكان يشكر اصدقاءه على هذه التنبيهات ويعمل بنصائحهم في اتخاذ الحيطة، وكان يتلقى في منزله الكثير من المكالمات الهاتفية من مجهولين يكيلون له أبذأ الشتائم ويتوعدونه بالقتل إن هو لم يغلق فمه ويكف عن الكتابة. وتذكر فارس ، وهو المناضل المخضرم، كيف نهض بغتة من مكانه في المقهى ليغادره بأقصى سرعة ويفتح باب أول سيارة تاكسي صادفها في ميدان براسا دو كوميرسيو لتنطلق به الى محطة الباصات. ونظر فارس

من مكانه في المقعد الخلفي من التاكسي فوجد الرجلين يخرجان من المقهى مهرولين ثم يركضان تجاه موقف السيارات الكبير في نفس الميدان. وتأكد عندئذ أنه ضللهما ونجا من المطاردة التي كانت أول تجربة له من هذا النوع في البرتغال . لكن شعورا ظل يخامره بأن الإفلات من متعقبيه كان أسهل مما ينبغي.

ورفع فارس نظره عن صورة طفله وأجاله في الركاب من جديد . أمامه جلست سيدة كهلة ، شعرها أسود طويل، وكلما التفتت الى الخلف نحوه لاحظ سحنتها العربية... كأنها العمة هدى يا نوال ، إلا أن للعمة هدى أنف أدق من أنف هذه السيدة. وبجانبها جلس شاب أسمر، حاد الملامح، شعره أسود قصير جدا، كما هو حال المجندين في هذه البلاد... أيضا سحنته عربية صميمة يا نوال، كأنه أخوك عماد، وهو في مثل سنه... كلهم حواليك يا نوال، ولو أن بعضهم مازال معتقلا... كحال عماد مثلا . لكن السجن هناك قربكم لهو أرحم من هذا التشرد في بلد مهما أحببته وأحبني أهله ، فإنه ليس لي فيه ثمة جذور أو أغصان... مجرد ورقة جافة سقطت من شجرتها الأم وعصفت بها الرياح، أنا يا نوال ورقة تنشد غصنها ولا ترضى عنه بديلا... ولكن هيهات... فهل عرفت ورقة سقطت من غصنها خضراء يانعة ثم ردت اليه ثانية!.

واصلت الحافلة انطلاقها صوب فارو والسيارة الحمراء تتعقبها عن بعد، ولا تقترب منها. كان على متنها رجلين، أحدهما أسمر والثاني أشقر محمر الوجنتين. رن جرس الهاتف في السيارة الحمراء فتناوله الرجل الثاني وتحدث الى مكالمة باقتضاب ثم أغلق الخط.

أما فارس فقد واصل تأمل الركاب من حوله ، وتأمل الناس عنده متعة كبيرة ، فهو يتعرف عليهم ولو قليلا، ويقترب منهم بوجدانه كأنه يتحسس عوالمهم شوقا منه للتعرف عليها، لا سيما إذا كانوا ينتمون الى شعوب أخرى، وكثيراً ما تمنى لو أنه يبعث بعد الموت المرة تلو المرة، منتميا في كل حياة الى شعب جديد، فقد لاحظ دوما في أسفاره أن للشعوب أعماقا شديدة الشبه فيما بينها ، ذات علاقة وطيدة بالإنسان على فطرته الأولى، بعيدا عن القشور التي اصطنعتها هذه الشعوب لأنفسها لتتميز بها عن باقي الشعوب، خاصة عن جيرانها.

وانتبه فارس من خضم أفكاره الى عينين سوداوين تسترقان النظر إليه. كانت تلك المرأة الشابة التي لفتت نظره عند صعودها إلى الحافلة لروعة جمالها. كانت تجلس بمحاذاة الممر ، أمام المقعد الذي على يسار جارته البدينة. في نحو الثلاثين من العمر، سمراء الوجه سوداء الشعر دقيقة الملامح. وكي تسترق النظر اليه، وهي التي لم تعره انتباها عند صعودها الى الحافلة، كانت تضطر للإلتفات الى الخلف نحوه... آه من عذاب الوحدة يا نوال... كل امرأة جميلة تذكرني بك يا أجمل النساء... كم تخيلتك في نساء كثيرات وقع عليهن بصري في هذا البلد، وكم تخيلت نضال وهناء ومنتصر كلما شاهدت أطفالا يلعبون و يمرحون ، في بلد حر لا يقهرهم فيه محتل... كلما شاهدت عربة أطفال تدفعها أم أو أب أقترب منها وأنظر للطفل داخلها وأتذكر إبننا منتصر ، وكثيراً ما كنت أخرج صورته من جيبي لأعرضها على الأم أو الأب إذا استغربا من تصرفي... وكم مرة فرت من عيني دمعة وهم يشاهدون الصورة بإعجاب إذ أعي من جديد أنني لا أعرف إبني أكثر

من معرفتهم الجديدة له، عبر صورة هي تجسيد للحظة واحدة من حياته... وحتى هذه اللحظة لم أعرفها قط إلا من خلال الصورة... كم بي من شوق اليكم يا نوال لأضمكم الى صدري وأداعبكم كما كنت أفعل في أيام غابرة اختلسناها من الزمن في وطن تعيس، وكما أرى الآباء هنا يفعلون مع أبنائهم وزوجاتهم فأحسدهم أشد الحسد، ثم استدرك مشاعري الجريحة، وأرجو الله لهم تمام السعادة خشية عليهم من حسدي. أتذكرين كم مرة جئنا الى هذا البلد معا؟. الأصدقاء البرتغاليون هنا يسألون عنك وعن الأولاد ويقترحون علي المرة تلو المرة أن آتي بكم الى هذا البلد رغم ما يعرفونه من تحرقي شوقا للعودة الى بلدي. يريدون أن يثنوا عزمي عن العودة لفلسطين لفترة سنتين أو ثلاثة على الأقل... أفضل الموت يا نوال قبل أن أجلبكم الى البرتغال فأحرم وطني منكم وأحرمكم منه... وكفى حرماني منه ومنكم. أفضل الموت قبل أن أجليكم عن الأرض الطاهرة كما يتمنى العدو، وهو ما لا يفهمه بعض الأصدقاء المخلصين هنا.

المرأة الكهلة الجالسة أمامه أخرجت من كيس من القماش حبات من اليوسفي فاحت رائحتها العطرة فورا فلزم فارس حيز بلاده في الذاكرة التي كانت تتغذى بمنظر بيارات البرتقال والليمون التي كانت تتألق على مرآى منه خلف النافذة بعد أن غادرت الحافلة مدينة سيتوبال التي وصلوها بعد ساعة من مغادرة لشبونة وتوقفوا في محطة الحافلات فيها لنحو ربع ساعة.

السائق عنيف في قيادة الحافلة، متهور، يسابق السيارات الصغيرة. السيدة البدينة الجالسة على يساره تقيأت في كيس من النايلون حتى

اقشعر بدنه لمنظرها ولمعاناتها وأشفق عليها أيما إشفاق وهي التي كانت قد التهمت الطعام تلو الطعام منذ أن جلست في مقعدها.

وتنبه الى أن الشاب الأسمر ذو الشعر القصير الجالس بجانب السيدة أمامه كان قد فتح معها حديثا بدا أنه استحوذ على اهتمامهما . كان بينهما انسجام رغم أن السيدة في عمر أمه، أو لربما كان ذلك هو السبب. وراحت السيدة تعرض على الشاب صورا لأفراد عائلتها. وكان فارس من مقعده يشاهد تلك الصور معهما، بل أن السيدة كانت تلتفت تجاهه من الحين للآخر كأنها تدعوه للمشاركة في الحديث ولرؤية الصور ولكن فارس لزم صمته وكان يكتفي بترديد أي كلمة موافقة كلما نظرت اليه تحدثه. وكان ضجيج الحافلة في مسيرتها السريعة يتكفل بمحو هذه الكلمات العابرة... الصور يا نوال لسيدة تجلس على مقعد في حديقة ، وهي ليست هذه السيدة الجالسة أمامه، ولطفل على مقعد أسطواني الشكل وحوله ألوان ابتدعها المصور في الأستوديو، ولطفلين في نحو الثالثة من العمر واقفين يمسك كل منهما بيد الآخر... نفس الصور العائلية التي نشاهدها في استوديو فلسطين في ساحة المناره في رام الله كلما ذهبنا إليه ليلتقط لنا ولأولادنا صورا هي أيضا شبيهة بها. أود يا نوال لو أعرض على السيدة والشاب صور أطفالنا التي تسلمتها منك اليوم ولكنني لا أجد بي مزاجا مواتيا لتبادل حديث طويل معهما. الشاب بدأ يفك لفة سندويش بهدوء شديد بينما لم يكن يكف عن متابعة كلام السيدة. أخرج الشطيرة من الورق المعدني وقلبها بين يديه متفحصا، ثم فتح ما بين نصفيها من الخبز ليرى شريحة اللحم القابعة بينهما. بدا كأنه يمتحن الشريحة. عاد فضم النصفين الى بعضهما وقد بدا أنه رضي

عنها تماما ثم بدأ يأكل في هدوء وتأن لا يتلائمان مع شبابه اليافع. إنه يمضغ في حذر ولا يفتأ يقلب الشطيرة بين يديه ويفتحها بين الحين والآخر كما لو أراد أن يطمأن على أن اللحمة لم تغادر مكانها. أتذكرين سندويشات البرتغال يا نوال؟ كنت تحبينها وكنت تقولين أن خبزهم طري وشهي... من المؤكد أنها ستلذ للأولاد إن ررتموني هنا... ولكن مهما كانت هذه الشطائر لذيذة فأين هي من تلك التي تعدينها لهم بيديك. سندويشات الزيت والزعتر والجبنة النابلسية والفلافل والحمص والفول المدمس. أين هي الآن لألتهمها بلا تأنٍ مع كوب من الشاي بالمرمية تصنعيه لي بيديك وبحنانك.

المرأة الشابة مازالت تسترق النظر اليه. نظرات إستشف فيها فضولا جادا أثار عجبه . بجانبها يجلس شاب أسود مجعد الشعر، ولكنهما لم يتبادلا كلمة واحدة منذ بداية الرحلة . والواقع أن ركابا قلائل كانوا يتبادلون الحديث، بينما الآخرون كانوا منصرفين الى القراءة أو التأمل أو النوم.

وأشعل الرجل الجالس خلف السيدة البدينة سيجارة ونفث دخانه تجاه مقعدها فالتفتت إليه ونهرته بشدة فأطفأ السيجارة لتوه دون أن يرد عليها. لا أحد يدخن داخل الحافلة سوى فتى وفتاة جلسا وحيدين في الصف الأخير من المقاعد.

راقب فارس السحب على يمين الحافلة ويسارها. كأنها لوحة فسيفساء مترامية الأطراف ، مؤلفة من عدد لا حصر له من السحب الصغيرة. الغيوم بعضها أبيض وبعضها رمادي. وهناك سحب قليلة كبيرة وسوداء تبعث في نفسه كلما تأملها المزيد من مشاعر اللوعة

المستأنسة التي ينطوي عليها صدره. وبدأ يلعب مع الغيوم إمعانا منه باستثناس اللوعة ، وانصرف للحظات عن تأمل الركاب وتقليب الذاكرة. طالما اعتاد على اللعب مع الغيوم. فعل ذلك منذ طفولته لا سيما عندما كان يسافر مع أمه من رام الله، حيث كانت سكناهم، الى عمان. وكانت تلك الرحلة تتكرر مرتين أو ثلاث كل سنة. ها هو يتشبث بالذاكرة من جديد... هذه السحابة على شكل قط ، وهذه تبدو كالأسد... وتلك كأسد يطارد بطة... وأخرى كأنها رجل جالس على مقعد . السحب تجري بعكس اتجاه الحافلة... كانت رحلاتي تلك مع أمي يا نوال لقضاء الإجازات في بيت جدتي في عمان... كم من مرة حدثتك عن تلك الرحلات التي كانت لطفل في مثل سني تلك كرحلات ابن بطوطة... كأنها ضرب من الخيال... وكنت انتظرها بفارغ الصبر لما كانت تعنيه من مناظر جميلة لم يكن هناك من مناسبة لرؤيتها إلا عند السفر، ولما كان ينتظرني دوما في عمان من حرية لم أكن أعهدها في رام الله... كانت أمي تنشغل عني في بيت جدتي بأمها وإخوتها، وكنت أجد لنفسي أصدقاءا في تلك الناحية من جبل النظيف، عندما كانت المنازل فيه تعد على أصابع اليدين ، والتراب والخضرة والصخور تدعونا الى ضروب من اللعب يستهلك معظم النهار. كان ذلك في الخمسينات، سقاها الله من سنوات عذبة إختلسها جيلنا المطحون.

وباغتته من جديد صورة الرجلين اللذين طارداه في لشبونة. ودهمه هم دك صدره وانقبض له قلبه... وتساءل عما كانا يبغيان منه، وراح يخمن مقصدهما دون أن يخالجه شك بأنهما إسرائيليان.

وتمنى في تلك اللحظة لو أنه يحمل معه سلاحا ليدافع عن نفسه، وهو الذي لم يحمل سلاحا في حياته. وتذكر كم نصحه أصدقاؤه من البرتغاليين والعرب على حد سواء كي يحمل مسدسا مرخصا، ولكنه أبى قائلا لهم أن الموت محتوم لمن يتعقبه قتلة يبغون إغتياله، مهما حمل من سلاح ومهما تيقظ. وكان يقول لهم أيضا أنه يفضل ألا يتسلح حتى يعرف الجميع، لو نفذت الجريمة، أن قتلته أوغاد يغتالون العزل، تماما كما يقتلون يوميا الشعب الأعزل أمام سمع العالم وبصره.

والتقت عيناه بعيني السمراء إذ التفتت إليه من جديد فأنسته للتو هواجسه ، وتمنى لو أنها جليسته بدلا من هذه البدينة التي لا تكف عن الأكل والنوم والتقيؤ. وكأن اشتداد الألم الذي يعانيه من وطأة ذكرياته وهواجسه أدى به الى تمني السمراء جليسة له يتجاذب معها أطراف الحديث، ففي عينيها بريق من الذكاء ينبيء بشخصية حرية بأن يبعده حديثها عن سطوة الحنين والهواجس. ولم يكن يطمع من تلك المرأة البارعة التي لم تكن تكف عن النظر اليه من الحين للآخر، بكثير من التهذيب، سوى بحديث شيق، فلم يكن في قلبه طمع في نساء ولا مكان شاغر يتسع لواحدة منهن. إن حب نوال يملأ عليه قلبه وحياته... نعم يا نوال ، إن حبك يحول دوني ودونهن وهو عهد أخذته على نفسي منذ أن ولد حبنا ثم كان الزواج... إن الحب الذي وجدته بين يديك وفي عينيك وفي لهفتك علي كلما ابتعدت عنك أو عدت اليك لهو السد المنيع الذي لا تتسرب منه الى قلبي إمرأة مهما كان جمالها ودلالها. فاطمأني . إنه حبك الذي خفق في قلبي مذ كنا نلعب سوية في فناء بيت جدتي في عمان. كان بلاط ذلك الفناء

يسحرني بمربعاته البيضاء والسوداء، وكنا نقضي فيه ساعات المساء صيفا لا نكل من اللعب مع أبناء خالتي، أنا وأنت، وكنت أجمل بنات الجيران في ذلك الحي الناشيء. أتعلمين؟ لقد شاهدت في لشبونة وفي مدن برتغالية أخرى بيوتا، بل ودوائر حكومية أيضا، لها نفس بلاط ذلك الفناء، وبنيت في نفس تلك الحقبة التي ترعرعنا فيها أطفالا، أنت في عمان شرقا وأنا في رام الله غربا، يوم كنا لا نعرف شرقا من غرب. وكنت أنتظر تلك الرحلات بشوق كان يزداد تأججا بتقدم سنوات العمر حتى وصل ذروته باشتداد عودنا وصار في قلبي للقياك نفس الشوق الذي يعذبني اليوم والذي عرفته متوحشا ينهش أحشائي عندما كنت نزيل المعتقل غير بعيد عنك وعن أولادنا. كانت عودة فارس الى ذاكرته تشتد وتشتد معها الغصة في حلقه، فيعود يلعب مع الغيوم، والحقول الخضراء تنساب أمام عينيه في دعة وسلام، تتخللها القرى الصغيرة، والبيوت المتفرقة، والفلاحون الكادحون في الحقول، وبيارات البرتقال والليمون واليوسفي والمساحات الشاسعة من الأراضي التي انتظمت فيها حتى اللانهاية أشجار الزيتون.

وتوقفت الحافلة بعد ثلاث ساعات من خروجها من لشبونة عند مقهى كبير يقع في أطراف قرية صغيرة، وهرول الركاب يغادرونها في سباق لتناول شيء من الطعام أو الشراب. وظل فارس مكانه ساكنا واجما يراقب تسابقهم دون أن تكون لديه نية في التحرك من مكانه. وفوجيء بأن المرأة الشابة لم تنهض هي الأخرى ثم لاحظها تنظر تجاهه وقد خلت الحافلة إلا منهما ومن السائق الذي كان يراقبهما عبر المرآة من مقعده كي يعرف ما إذا كانا سينزلان أم لا. كان هناك شيء ثقيل ، بثقل الجبال المنتصبة خلف القرية، يرزح فوق صدره ويلزمه

مقعده ونظره شارد عبر النافذة. والتفت نحو السيدة كي يرى ما إذا كانت قد غادرت مكانها فوجدها تنظر نحوه باهتمام لا تخفيه، ثم سمع السائق يسألهما بصوت مرتفع عما إذا كانا سينزلان أم لا لأ نه كان يريد الذهاب الى المقهى وإغلاق أبواب الحافلة. وانتبه فارس على صوت السائق الذي رده من عالم التأمل، وكانت عينا المرأة المترددة على عينيه قد بعثتا في قلبه شيئا من الدفء والاهتمام بما حوله . وإذ بها تقول بقوة وبصوت مفعم بالأنوثة:

- نعم. سننزل.

وبهت للحظة إذ تكلمت تلك السيدة بالنيابة عنه وكأن بينهما معرفة قديمة. ونهضت هي من مقعدها فأتيح له تأمل قوامها الممشوق وهندامها الأنيق وهي واقفة تنظر اليه بدون تمويه، بوجهها المضيء وابتسامتها العذبة حتى أدرك للتو أنه أمام امرأة مصقولة وراقية. وإذ بابتسامة تنبع من أعماقه وتسري عبر شرايينه لتستقر على شفتيه عريضة خفاقة. فنهض بثقة وأقبل عليها وهي تنتظره قائلا وكأن بينهما فعلا معرفة قديمة:

- هيا بنا .

ولم يُلاحظ فارس وهو يدخل المقهى خلف مرافقته أن سيارة حمراء على متنها رجلين وصلت في تلك اللحظة الى موقف السيارات ووقفت قرب الحافلة . لم يكن يعرف أن متعقبيه كانا قد تمكنا من اللحاق به في لشبونة حتى محطة الباصات وأنهما طارداه طيلة الثلاث ساعات الأخيرة.

داخل المقهى كان الإزدحام شديداً على الندل الذين كانوا

يخدمون الزبائن من خلف المصطبة المرمرية. لذا تبادل فارس ومرافقته نظرات الحيرة فأشارت الى طاولة سارعا الى الجلوس إليها. وبينما ذهب الموظف لإحضار طلبيهما بدأت هي بالحديث فقالت:

- أرجوك ألا تستغرب من تصرفي فإن بيننا معرفة سابقة.

وفوجيء فارس بكلامها هذا ولكنه لم يقل شيئا بانتظار أن تواصل حديثها، فاستطردت تقول:

- قرأت كتابيك عن القضية الفلسطينية ومقالاتك الكثيرة في الصحف وحضرت كثيرا من الندوات التي شاركت بها ومن المحاضرات ألقيتها في لشبونة. كما شاهدتك كثيرا على شاشة التلفزيون . إنك البرفيسور فارس، أليس كذلك؟.

قالت كلماتها الأخيرة وابتسامة عذبة تزين محياها مضفية على جمالها المزيد من السحر. ولم يملك فارس وهو أسير الدهشة سوى أن تمتم:

- نعم. نعم. أنا الدكتور فارس.

فواصلت حديثها قائلة:

- أما أنا فاسمح لي أن أعرفك بنفسي. إنني الدكتورة أماريليس سيلفا، زميلتك في الجامعة، ولكنني أدرس في كلية العلوم السياسية.

وشعر فارس بالإرتياح إذ عرف أخيرا هوية محدثته وسبب اهتمامها به، فقال مستردا ابتسامته الأولى معها:

- أتشرف بمعرفتك يا دكتورة أماريليس.

- الشرف لي بالتعرف عليك. أصارحك بأني أردت التعرف

عليك من قبل ، ولكنني كنت كلما ذهبت لمحاضراتك وجدتك محاطا بتلاميذك وبالحضور ممن يتوقون الى المزيد من المعرفة حول القضية الفلسطينية.

- لو كنت أعرف ذلك لذهبت بنفسي الى كلية السياسة.

إنها حقا لصدفة عجيبة أن ألتقي بك على متن حافلة. لم أكن متأكدة في بداية الأمر من أنك أنت ولم أتأكد من ذلك حتى توقفت الحافلة هنا.

وضحكت من قلبها وشاركها الضحك ونوال وأبناؤه الأربعة لا يفارقون مخيلته كان يشعر بمرارة مستقرة في صدره، راسبة في كيانه بعد أن تراكمت عبر السنين . ولكنه كان قد شعر بالإرتياح لتعرفه على تلك السيدة ولاهتمامها بالقضية التي وهب لها نفسه.

قالت له وخادم المقهى يضع فوق الطاولة فنجاني قهوة:

- أريد أن أقول لك بروفيسور فارس أن قدومك الى البرتغال قبل سنتين...

وقاطعها مبتسما ومبديا تعجبه

- وتعرفين أيضا أنني قدمت الى بلدك قبل سنتين؟!

ومن لا يعرف ذلك من بين المثقفين هنا. لقد أحيطت قضيتك منذ أن اعتقلت في إسرائيل...

وقاطعها من جديد

فلسطين. من فضلك، إنها فلسطين.

واستدركت قائلة

- نعم. متأسفة. كنت أقول أنه منذ اعتقالك في فلسطين قبل حمس سنوات وحتى وصولك الى لشبونة قبل سنتين أحيطت قضيتك باهتمام واسع في وسائل الإعلام والأوساط الجامعية هنا، وبشكل خاص في الجامعتين اللتين تخرجت منهما، في كويمبرا ولشبونة.

وهز فارس رأسه معلقا:

- بالفعل. وجدت هنا بلدي الثاني، منذ دراستي الأولى فيها.

- أعني أن قدومك للبرتغال كان ذو فائدة عظيمة للمسألة الفلسطينية. فالساحة هنا كانت خاوية إلا منهم، أقصد اليهود، يسرحون فيها على هواهم.

وقاطعها من جديد مبتسما:

- الإسرائيليون والصهاينة من فضلك، لاشيء لدي ضد اليهود.

فردت عليه بابتسامتها الساحرة:

-أعرف ذلك يا دكتور فارس. أنا التي أقول اليهود ولست أنت. المهم. كنت أقول أننا لم نكن نعرف هنا إلا ما ندر عن حقيقة المأساة الفلسطينية كما يرويها أصحابها. أمثالك ضروريون جدا في كل مكان من أوروبا وأمريكا.

- لا أعتقد يا دكتورة أماريليس أن وجودي هنا له هذه الدرجة من الأهمية. أتمنى أن أرى شخصا واحدا هنا قد غير رأيه وموقفه لصالح الشعب الفلسطيني بعد القراءة لي أو الإستماع الي.

فردت عليه وقد وضعت كلتا يديها فوق الطاولة وقد اشرأبت إليه

وثبتت عينيها في عينيه بينما كانت إبتسامتها تتلاشى لأول مرة منذ أن بدأ الحديث بينهما:

- بروفيسور فارس. يبدو أنك لم تعرفني بعد. لقد قدمت لك نفسي ولكن اسمي لم يذكرك بشيء، أليس كذلك؟.

وفوجيء فارس بجديتها المباغتة، التي لم تفقدها شيئا من جمالها ولطفها معه، وهز رأسه واجما وقد تلاشت ابتسامته أيضا وهو يردد كمن أسقط في يده:

- آسف ولكنني لا أعرف ما تعنيه.

وعادت أماريليس الى جلستها الأولى ورشفت آخر ما تبقى من القهوة في فنجانها ثم قالت:

- لعام مضى يادكتور فارس كنت واحدة من أغنى المدافعين عن إسرائيل في هذا البلد. وكنت أزور بلدك المحتل مرة أو مرتين في السنة، مدعوة من الجامعة العبرية حينا ومن التلفزيون الاسرائيلي حينا آخر ومن جمعيات ثقافية أو مؤسسات صهيونية أحيانا.

ولاحظت أماريليس علامات الدهشة التي كست وجه فارس وهو يستمع اليها باهتمام شديد، فواصلت حديثها:

- كنت ورفاقي من البرتغاليين نتلقى هناك معاملة مترعة بالحفاوة ولا نزور المناطق المأهولة بالسكان العرب إلا نادرا وبسرعة خاطفة. وكانوا يغدقون علينا الهدايا بمناسبة وبغير مناسبة.

توقفت أماريلييس عن الحديث للحظة وهي تتابع أثر حديثها على فارس الذي لم ينبس بكلمة تحت وقع المفاجأة، فاستطردت تقول.

- كنت ورفاقي قد تشبعنا بدعايتهم، دون أن يخطر لنا أن نلتفت يوما الى الوجه الحقيقي لهذه الدولة ولا الى الأسس التي بنيت عليها ولا الى الشعب الفلسطيني الذي كان بالنسبة لنا مجرد مجموعة من الهمج الذين يطمحون لهدم دولة حضارية وإبادة شعبها، تماما كما لقنتنا دعايتهم طيلة سنوات وسنوات.

وهنا قال فارس وقد بدأ يسترد ابتسامته:

- هذا هو أسلوبهم في كل دول العالم لتأليب شعوبها على الفلسطينيين الذين هم ضحايا الابادة اليومية.

وتابعت محدثته كلامها وهي تهز رأسها تأييدا لكلامه:

- حتى كان يوم قرأت فيه كتابك «جوهر الدولة الإسرائيلية» فهزني هزا.

- ماذا؟.

- أقول لك ان الكتاب هزني فكريا وعاطفيا. ووجدت أن معلوماتي وركائز معتقداتي عن هذه الدولة هزيلة ولا تحتمل مقاومة حجة واحدة فلسطينية. شعرت بمؤلف الكتاب كذبيح يشكو الي الجزار أو كمشنوق يشكو الي الجلاد.

وقاطعها قائلا بلهفة:

- هو كذلك. ما أروع هذا التعبير.

- ومنذ ذلك الحين تتبعت محاضراتك وندواتك وبدأت أشعر بالفخر لوجودك في بلدي فهنا حاجة كبيرة إليك في هذا المضمار كي ترد على المخادعين والمتلاعبين بضمائرنا.

- أراك شديدة النقمة عليهم . يبدو أنهم أضروا بك جدا.

- بل ألحقوا الضرر طيلة سنين بعقلي وبضميري. إنني يا دكتور كنت من رد عليك بشراسة عندما نشرت مقالتك الأولى في لشبونة بعد وصولك اليها بأيام شارحا فيها معاناتك في معتقلات إسرائيل ومعاناة آلاف من الفلسطينيين المعتقلين والمعذبين. ألا تذكر؟.

وقطب فارس ما بين حاجبيه إزاء المفاجأة الجديدة، وسرعان ما تذكر مقالها الصحفي ردا عليه قبل ذلك بسنتين، وتذكر بالفعل إسمها كمدافعة مرموقة عن إسرائيل. ولكن غياب قلمها طيلة العام الأخير كان قد غيب إسمها عن ذهنه، فهب قائلا بفرح شديد:

- آه. الآن تذكرت. أنت أماريليس سيلفا التي هاجمتني مرارا، وليس مرة واحدة كما تقولين.

ثم أطلق ضحكة رنانة بينما اتسعت إبتسامتها إزاء استجابته المرحة لتلك الذكرى التي كان من الواضح في تلك اللحظات أنها أصبحت بالية

- أخيرا تذكرت يا بروفيسور؟ بالفعل أنه لم يكن مقالي الوحيد ضدك، فطالما اتهمتك بالكذب في بداية الأمر، وأرجو المعذرة .

- معذورة أنت يا أماريليس ومثلك هناك كثيرون من المخدوعين. الآن تذكرت بالفعل وتزيدني هذه الذكرى سعادة بالتعرف بك. أرجو أن تسمحي لي بمناداتك باسمك فقط.

- بل أنه ليسعدني ان تناديني باسمي، عربونا للصداقة الجديدة بيننا.

- شكرا على نبل مشاعرك.

- مذ قرأت كتابك ذاك اعتدت قراءة كل مقالاتك بروح جديدة وحرصت على مشاهدة البرامج التلفزيونية التي دعيت اليها وعلى حضور الندوات التي شاركت فيها.

- إني لسعيد بكل هذا الإهتمام .

- كما بدأت أيضا بالتهام الكتب التي ألفها الفلسطينيون والعرب وانصارهم حول القضية الفلسطينية. وكنت قبل كتابك الأول احتقر كل هذه المؤلفات ولا أجرب اطلاقا قراءتها. وأحدث كل ذلك بي تحولا كبيرا جعلني اتوق للتعرف إليك.

- وهل قرأت كتابي الثاني بالبرتغالية؟.

- نعم. حال صدوره قبل ستة شهور.

وسارعت الى فتح حقيبة يدها وأخرجت منها كتابا وقالت وهي تضعه أمامه على الطاولة .

- ها هو. جلبته معي كي أعيد قراءته في فارو حيث سأقضي هناك بضعة أيام في بيت أمي.

دهش فارس وغمرته سعادة خالها قمة السعادة وهو يرى كتابه على الطاولة ويتأمل صنيعته جالسة قبالته تحدثه بحماس وثقة. وسألها بلهفة:

- والآن ؟ ما هو موقفك المعلن تجاه فلسطين وشعبها؟.

- ألم تقرأ صحيفة «جورنال دو نوتيسياس» اليوم؟.

- كلا؟ اشتريتها ولكنني لم أقرأها بعد.

ونهضت أماريليس توا وابتعدت عن الطاولة في خطى حثيثة وهو يتابعها بنظره وقد تملكته الدهشة التي لم تفارقه مد جلس معها. وما هي إلا لحظات حتى عادت ومعها الصحيفة ففتحتها على إحدى الصفحات ووضعتها أمام فارس الذي كان وجهه آنذاك قد إكتسى بجدية طارئة. ووقع نظره على مقال يحتل صفحة كاملة بينما كانت تقول له وهي تجلس من جديد:

- أرجو ان ينال المقال إعجابك وأن أكون قد أصبت.

وقرأ فارس عنوان المقال بصوت مسموع: «إسرائيل، الدولة الأكذوبة».

وبهت فارس وهو يقرأ العبارات الأولى من مقال أماريليس واغرورقت عيناه بالدموع وقلبه يطفح بالرضا. وفي تلك اللحظة شعر بالمرارة التي لزمت أعماق قلبه لسنوات كثيرة وقد اقتلعت من جذورها. ولاحظت أماريليس ما ألم بفارس من عاطفة جياشه فقالت له بحنان وهي تمسك بكلتا يديه:

- عملك رائع يا فارس وهو أساسي من أجل تحرير الارض والشعب في فلسطين ولتحرير العقل في بلادنا.

وسحبت يديها بهدوء بينما كان يسألها بصوت متهدج لشدة تأثره:

- أهذا هو مقالك الأول في موقفك الجديد تجاه فلسطين؟.

- كلا... إنه الثاني.

وصمتت لحظة قبل أن تسأله بدورها.

- أتعرف ماذا كان عنوان المقال الأول؟

وهز رأسه بالنفي وهو يتأمل بصمت، فقالت:

- كان عنوانه «من الفلسطينيين أعتذر».

- ماذا؟.

- كما سمعت. ولقد نشر على صفحة كاملة أيضا في هذه الصحيفة. إنني الآن يا فارس من أصدق المؤيدين لقضيتكم العادلة والتي أصبحت قضيتي وقضية عدد من رفاقي ممن كنا في الماضي القريب قد سخرنا لخدمة إسرائيل دون أن نشعر بفداحة جريمتنا تجاه شعبك المعذب.

- لشد ما يسعدني سماع كلماتك هذه.

- لأنها حقيقية. والآن وقد تعرفت عليك شخصيا فإنني اطلب المعذرة منك شخصيا.

وهزته كلماتها من جديد وسارع يقول بتواضع:

- بل شكرا لك. إنك قد أضأت قلبي بالأمل وانتزعت الحيرة من قلبي ولو عرفتك زوجتي وعرفت ما فعلتيه بي الآن لشكرتك شكرا لا حدود له.

وبدا أن أماريليس لم تفهم تماما ما عناه فارس. بعبارته الأخيرة، فشرح لها بشيء من التفصيل ما دار بينه وبين زوجته من مناقشات حول ضرورة سفره الى خارج الوطن.

ونادى سائق الحافلة على المسافرين إيذانا بانتهاء الإستراحة فنهض فارس وأماريليس وقد أصبح الرجل يشعر بعظمة العمل الذي يقوم به

خدمة لوطنه وشعبه. وقبل أن يتجها نحو باب المقهى، إستوقفته أماريليس قائلة:

- بروفيسور فارس. أريد أن تسمح لي بمعاونتك في مهمتك. وإن معي بعض الأساتذة والطلاب والصحفيين التواقين لخدمة فلسطين إعلاميا بعد أن انقشع الغمام عن عيونهم. بإمكاننا إعانتك في البحث والنشر وتنظيم الندوات.

وانفرجت أسارير فارس، وقال لها وهو يصافحها تأكيداً للإتفاق الجديد بينهما:

- يشرفني ذلك جدا يا أماريليس. إنني اليوم أسعد إنسان على وجه الأرض، وذلك بفضلك أنت. ولكن لي عندك طلب مهم جدا.

- ما هو؟.

وبينما كانا يسيران نحو الباب، وبعد لحظة صمت، قال لها بصوت جاءها من أعماق نفسه:

- تلقيت تهديدات كثيرة منهم.

وسكت لحظة وقد تجهم وجهها إذ أدركت خطورة الموقف، ثم أردف يقول:

- أتعديني بالوقوف الى جانب الحق مهما كلفك الأمر، حتى لو نفذوا بي تهديداتهم؟.

واستوقفته من جديد وهما على بعد خطوات من الباب، وباقي الركاب يحيطون بهما من كل جانب متجهين أيضا الى الحافلة في الخارج، وقالت له وهي تنظر اليه مليا بعينيها الساحرتين.

- أقسم لك على ذلك. إن ضميري يعذبني كلما تذكرت السنوات التي قضيتها في الهجوم على الضحية والتنكيل بها إعلاميا.

وأمسك فارس بكلتا يديها بحرارة وعيناه تتقدان بالتعبير عن الرضا والامتنان وهو يقول:

- أشكرك يا أماريليس. أشكرك جدا.

كان حديثهما القصير الذي لم يتجاوز ثلث الساعة قد خلف بينهما تيارا قويا من الثقة المتبادلة. وكانت قد وعدته أيضا بالذهاب للإستماع الى محاضرته في فارو مساء ذلك اليوم.

عندما اجتاز فارس ومرافقته باب المقهى، وقد تخلفا قليلا عن باقي الركاب، انطلقت السيارة الحمراء من موقفها نحوهما مثيرة ضجيجا قويا أدى الى التفات المسافرين الذين لم يركبوا الحافلة بعد نحوها وقد أصابهم الذعر الشديد وهم يرون السيارة منطلقة باتجاههم كالسهم، ولزم بعضهم مكانه بلا حراك بينما هم البعض بالفرار بعيدا عن خط سيرها. وتسمر فارس وأماريليس في مكانهما وهما يرقبان انطلاق السيارة نحوهما. وفي تلك اللحظة التي تجمد بها الزمان هناك هلعا من الآتي الوشيك أدرك فارس كل شيء ، فدفع بصديقته أرضا لحظة أن فتح الرجل الأشقر نار رشاشه على فارس مخترقاً جسده بوابل من الرصاص وسط عويل الناس وصياحهم. واختفت السيارة الحمراء عبر الطريق العام مخلفة وراءها سحابة كثيفة من الغبار. ومرت لحظات قبل أن تستوعب أماريليس ما حصل، وهي طريحة الأرض، ومعفرة الوجه بالتراب. واندفعت نحو فارس وهي تصرخ بجنون وقد احتقن الدم في عينيها:

- يا أولاد الكلب، يا أوغاد. لقد قتلوه... لقد قتلوه.

ولم تنقطع عن الصراخ إذ ركعت على ركبتيها قرب فارس الذي كان مطروحا على وجهه وقد سالت دماؤه من رأسه وظهره. واشتد صراخها وعويلها وهي ترى دماء فارس بينما أخذ الناس يتحلقون حولهما بين صامت في ذهول وصارخ يطلب استدعاء الشرطة أو الطبيب ومكيل لشتى الشتائم للقتلة.

ورفعت أماريليس رأسها الى الجمع من حولها تصرخ فيهم:

- أليس هناك من طبيب؟ استدعوا الطبيب بسرعة.

ثم تجرأت أماريليس وهي في ذروة انهيارها العصبي وحركت جسد فارس، وساعدها أحد الموجودين فقلب الجسد، وهي تجهش في بكاء مخنوق، فوجدته ينظر اليها والبسمة لم تفارق شفتيه رغم التراب الذي علق بوجهه. فلما رفعت رأسه بيدها ومسحت عن وجهه التراب ، أدركت أنه فارق الحياة.

1992

شاي أم قهوة؟

امسي واصبح والذكرى مجددةٌ
مخمولةٌ في طوايا النفس للأبدِ
ما بالُ قلبي إذا ما سرْتُ في بلدِ
يصيح مِن وَجدِهِ في الضَّجرِ وابلدي

محمود سليم الحوت

منصور : السلام عليكم

حسين : وعليكم السلام. أهلا وسهلا.

منصور : أود مقابلة الأخ أبو نبيل.

حسين : الأخ أبو نبيل؟ من حضرتك؟.

منصور : منصور عطيه.

حسين : وغير ذلك؟ هل أنت من سكان هذه البلد؟ .

منصور : نعم.

حسين : منذ متى؟

منصور : منذ ثلاثة شهور .

حسين : يعني جديد. ولماذا تريد أن تقابل أبو نبيل ؟ هل تعرفه؟ هل لديك موعد معه؟.

منصور : لا أعرفه وليس لدي موعد معه ولكنني ...

حسين : أمعك جواز السفر أو هوية؟.

منصور : نعم. تفضل.

حسين : أنت من سكان رام الله ، وعمرك ١٩ سنة . أهلا مرحبا بشباب الانتفاضة. تبدو أكبر بكثير من

سنك.

منصور : شكرا. شكرا جزيلا.

حسين : ولكن أبو نبيل لايستقبل أحدا دون موعد مسبق، فهل نستطيع ان نخدمك نحن؟.

منصور : يجب أن أقابل أبو نبيل.

حسين : ألسنا قد المقام؟.

منصور : أستغفر الله ، ولكن صدقني أن مشكلتي لا يحلها إلا مدير المكتب بنفسه.

حسين : لماذا؟ أهي مشكلة سرية؟!.

منصور تقريبا.

حسين : أبو نبيل لن يستقبلك يا سيد منصور فأرجوك ألا تضيع وقتك ووقتي.

منصور : لم أحضر لتضييع وقتك ولا وقتي، وأذكرك بأن وقتك، بصفتك موظف في مكتب منظمة التحرير الفلسطينية هذا، هو ملك لكل فلسطيني يطرق بابكم في هذا البلد.

حسين إحنا احترمناك ورحبنا بك بصفتك من شباب الانتفاضة، فرجاءا أن تحترم نفسك وإلا...

منصور . إلا ماذا؟ أريد مقابلة رئيسك ، واعلم أنني لا أخاف أحدا، لا أنت ولا ألف مثلك. لقد فقدت الخوف منذ سنوات.

حسين : الله أكبر. تحضر الينا لتتهجم علينا في عقر دارنا.

منصور : أنا لم أتهجم عليك. أنت الذي بدأت بالحديث الي باحتقار لتحدثني عن تضييع وقتك، وكأننا لا نعرف بماذا تصرفون الوقت في هذه المكاتب الأنيقة. وليس هذا بعقر دارك بل هي أيضا داري بعلامة الجروح التي في صدري وبعلامة السنتين اللتين قضيتهما في السجن تحت التعذيب يا حضرة الموظف المستريح.

أبو خالد، صارخا : ما هذه الضجة ما الذي يحصل في الطابق السفلي؟.

حسين : لا شيء. أخ محترم قادم ليقابل أبو نبيل بدون موعد.

أبو خالد : أهلا وسهلا. أبو نبيل مشغول فتفضل معي الى مكتبي علني أستطيع مساعدتك. إتبعني.

منصور : حسنا.

حسين، متمتما : أهؤلاء هم شباب الإنتفاضة الذين دوخونا بهم وبكفاحهم؟ سبحان الله!!.

★ ★ ★ ★ ★

أبو خالد تفضل إجلس. الإسم الكريم؟.

منصور منصور عطيه.

أبو خالد : ما هي المشكلة يا أخ منصور؟ لماذا كل هذا الصراخ؟.

منصور الموظف اللي تحت تهجم علي وكان يحدثني كأنه يطردني.

أبو خالد : حسنا. أعتذر باسمه عما تسبب لك به من إزعاج. ولكن بماذا يمكن أن نخدمك.

منصور : أليس بالإمكان مقابلة أبو نبيل؟ .

أبو خالد : أبو نبيل مشغول. عنده سفير عربي.

منصور : سفير عربي؟. ما هي المسألة الهامة التي يأتي من أجلها سفير عربي الى هذا المكتب في الساعة العاشرة صباحا؟!. لدي مشكلة أهم بكثير من مشكلة هذا السفير، إنها مشكلة حياة أو موت بالنسبة لي.

أبو خالد : يالطيف. هدأ من روعك يا رجل. ماذا تشرب؟ شاياً أم قهوة؟ .

منصور : شكرا. أي شيء.

أبو خالد : يا مؤنس... مؤنس... يا مؤنس.

منصور : لا داعي للإزعاج. خليها بدون شاي ولا قهوة.

أبو خالد : لم تقل لي من أين أنت.

منصور : حضرت من فلسطين، من الضفة، قبل ثلاثة شهور.

أبو خالد : يعني أنت قادم من الإنتفاضة؟ .

منصور : نعم. من رام الله.

أبو خالد : تشرفنا يا منصور. صار إكرامك شرف لنا. يا مؤنس.. أين ذهب هذا اللعين... يا مؤنس يازفت. عن إذنك لحظة. أين مؤنس اللعين؟. أكلما نريد

فنجان من الشاي يتعين علينا أن نبحث عنه في كل طوابق المبنى؟. لعنة الله على البلد اللي طلعته.

منصور، متمتما   لا حول ولا قوة إلا بالله. ذهب وتركني. سنرى متى سيعود.

أبو السعيد   : السلام عليكم. أين الأخ أبو خالد؟.

منصور   : ذهب ليبحث عن مؤنس.

أبو السعيد   أنا أبو السعيد، مسؤول الطلبة هنا في المكتب، وأنت شكلك طالب. الإسم الكريم؟.

منصور   : منصور عطيه.

أبو السعيد   : يا هلا. من المقيمين في هذا البلد؟.

منصور   : حضرت من رام الله قبل ثلاثة شهور.

أبو السعيد   : إذن سأجلس معك، فأنتم القادمين من أرض الوطن رائحتكم عطرة وحديثكم بركة. خبرني كيف الحال هناك؟ .

منصور   الحال زفت في زفت يا أخ أبو السعيد، وأنت أعلم مني بذلك، فأنتم هنا لا شك مطلعون على ما يجري في أرض الوطن من مآسي.

أبو السعيد   : أراك منرفز قليلا يا بني . طبعا نتابع أخباركم، فأنتم ترفعون رؤوسنا بين العرب وفي العالم أجمع.

منصور   اما رؤوسنا هناك فغارقة بالطين، وأما لقمة عيشنا فمغموسة بالطين وأما حياتنا فملطخة بالطين وأما

الطين في بلادنا فملطخ بدمائنا.

أبو السعيد : يالطيف. لأ أكيد إنت منرفز. هل أنت صديق أبو خالد؟.

منصور : كلا. أول مرة أراه. كنت سأشرح له مشكلتي عندما تركني وذهب يبحث عن فنجان شاي.

أبو السعيد : الرجل يريد إكرامك.

منصور : وأنا متشكر. ولكن أين هو؟. لقد جئت الى هنا بحثا عن حل لمشكلتي وليس بحثا عن فنجان شاي.

ابو السعيد : إنني مسؤول الطلبة هنا، ومشكلتك تدخل في مجال إختصاصي. لم لا تشرحها لي؟.

منصور : وأبو خالد؟ ما هي مسؤوليته؟.

أبو السعيد : أبو خالد؟ هو المسؤول الإداري في المكتب ولا علاقة له بالمشاكل من خارج المكتب. هيا. إنهض وتعال معي الى مكتبي كي نتحدث بهدوء، وبإذن الله لا تخرج من هنا إلا وأنت مبسوط. ول يازلمه... جاي من رام الله وتطلع مكسوف؟! ، لا والله. تفضل. إتبعني.

★ ★ ★ ★ ★

أبو السعيد هدا هو مكتبي. أدخل. أهلا وسهلا. تفضل إجلس.

أبو الفضل : وينك يا أبو السعيد يا زلمه. لي نصف ساعة مطزور هنا أنتظرك. ألم نتفق على اللقاء هنا الساعة العاشرة

صباحا لنخرج الى المطار معا لإستقبال أبو منير. الساعة صارت العاشرة والنصف يا رجل. شو ها المواعيد هاي!!.

أبو السعيد : أهلا أبو الفضل. إنه منصور... من شباب الإنتفاضة اللي يعجبوك. رافعين راسنا ولاعنين أبوها لإسرائيل، ولسه الحبل عاالجرار. أبو الفضل يا منصور هو مسؤول المالية هنا.

أبو الفضل : بالحضن يازلمه .هاتلك بوسه من هون وبوسه من هون . أهلا وسهلا. طيب هاي كمان بوسه. والله حلت البركة. ياهلا بالريحة الطيبة. بس يا ابو السعيد الطيارة باقي لها نصف ساعة. ما العمل؟.

أبو السعيد : يا سيدي أبو نبيل نفسه ذهب الى المطار ليستقبل أبو منير. بيني وبينك إنها فرصته ليشرح له مشكلته مع أبو نزار في تونس . أبو نزار معقد له حياته مع الجماعة في تونس، وسادد عليه كل المنافذ. لذلك راح بنفسه يستقبل أبو منير لأنه عارف ان كلمة من أبي منير بتخلي أبو نزار في تونس يهر.

منصور الأخ أبو نبيل غير موجود في المكتب الآن؟.

أبو السعيد . الأخ أبو نبيل أصلا لم يحضر اليوم. ذهب الى المطار ليستقبل أبو منير وما أدراك من أبو منير!!.

منصور : ولكن...!

أبو السعيد ماذا؟

منصور : قالوا لي أنه مجتمع هنا مع سفير عربي.

أبو السعيد : ها ها ها. الله وكيلك من يوم حرب الكويت وأمجادنا فيها لم يدخل علينا سفير لا عربي ولا هندي .

أبو الفضل : ما هذه الفوضى يا أخي؟. لقد طلب مني أبو نبيل أمس عند منتصف الليل هاتفيا أن أخرج الى المطار معك الساعة العاشرة صباحا لإستقبال أبو منير وقال لي أنك ستنتظرني هنا. والله لقد نمت الساعة الرابعة فجرا وفايق اليوم مكسر كي أصل هنا على الموعد ثم تقول لي الآن أن أبا نبيل خرج لوحده لإستقبال أبو منير. طيب لماذا لم يتصل بي كما فعل أمس ليخبرني بذلك، لكنت استرحت ساعة أو ساعتين أخريين.

أبو السعيد : ما انت عارف أبو نبيل وطباعه.

أبو الفضل : والله عيب عليه.

أبو السعيد : على العموم قل لي، شو كاين في سهرة من سهراتك؟. ياعمي هنيئا لك بزوجتك اللي تاركة لك الحبل عالغارب.

أبو الفضل : لا يارجل. الآن منصور سيأخذ عني فكرة بطالة. لا تصدقه يا منصور، ترى هذا ابو السعيد زي الميه تحت التبن. كل ماحصل أنه كان عندي بعض الأصدقاء وعائلاتهم، ولعبنا ورق لساعات.

أبو السعيد : وخسرت؟ اليس كذلك؟ .

أبو الفضل : زي العادة. المهم أن رأسي الآن يلف وحالتي تعبانة.

أبو السعيد : من الويسكي.

أبو الفضل : وأنت؟ ألا تشرب؟.

منصور : أخ أبو السعيد.

أبو السعيد : نعم يا منصور. أبو الفضل هذا مثل أخوك الكبير ويمكنك أن تشرح لي مشكلتك أمامه.

ابو الفضل : ألديك مشكلة ياأخ منصور؟ مشكلة واحدة؟ ها ها ها، لدي عشرات منها.

منصور : هي بالنسبة لي مسألة حياة أو موت.

أبو الفضل : كان مجرد مزاح. ولكنني أراهن على ما تشاء بأنها مشكلة مالية ، فكل المشاكل المالية هي مشاكل حياة أو موت بالنسبة لأصحابها.

نائل : السلام عليكم. بحثت عنكم في أرجاء المكتب. والله مابعرف أشرب كاسة الشاي إلا مع أبو الفضل لأسمع كلامه الحلو .

أبو السعيد : ونحن ؟ ألا نملأ عينك ؟ طيب اتفضل أقعد.

نائل : هل قرأتم الصحف؟ المصائب وراء بعضها؟.

أبو الفضل : ول يازلمه... صرت قارئ الصحف؟ اليوم ما كاد أن يبدأ بعد.

نائل : مين الأخ؟. عرفونا عليه.

أبو السعيد : معك حق. إنه منصور عطيه. من رام الله. من شباب

الإنتفاضة.

نائل : أهلا وسهلا. تشرفنا. حلت البركة. إسمي نائل.

أبو السعيد : نائل هو المسؤول الإعلامي في المكتب وممثلنا ياسيدي في لجنة الإعلام في مجلس السفراء العرب.

منصور : تشرفنا.

نائل : طيب خلاص يا أبا السعيد . يكفي. الرجل سيظن أنها لجنة فعلا وأنه مجلس فعلا.

أبو الفضل : لماذا ؟ ألم يكن إجتماعكم بالأمس موفقا ؟ . ألم تتخذوا قرارا نهائيا وحاسما بسحق الإعلام الإسرائيلي في هذا البلد.

نائل : ما إنت عارف قراراتنا... كلها حبر على ورق. والله لا أعلم لماذا نجتمع في هذه اللجنة منذ سنوات.

أبو السعيد : لنفس الأهداف التي يجتمع لها مجلس السفراء العرب وبنفس النتائج.

أبو الفضل : وهل تبقى مجلس سفراء عرب بعد مهزلة غزو الكويت؟.

أبو السعيد : وهل تبقى عرب بعدها؟.

نائل : هل قرأتم صحف اليوم؟.

أبو الفضل : مرة ثانية نفس السؤال؟ قلنا لك أننا لم نقرأ بعد، والبركة فيك. ماذا حصل؟.

نائل : تفضل يا سيدي. إقرأ هذا العنوان الكبير على

صفحتين كاملتين. مرة أخرى يتهموننا بالإرهاب، ويتهمون هذا المكتب بالذات بأنه واحد من أهم معاقل الإرهاب.

أبو الفضل : إنهم لا ينامون الليل وهم يخططون لتشويه سمعتنا وصورتنا بأي وسيلة بينما نحن وكأننا لا نرى ولا نسمع ولا نفقه.

نائل : والأدهى من ذلك انهم يتهمون في هذا التحقيق الصحفي المزور كل طالب فلسطيني في هذا البلد وفي كل أوروبا الغربية بأنه إرهابي، هكذا وبكل بساطة.

منصور : ولكن لماذا لا تردون عليهم؟. لماذا لا تشتكوهم لدى القضاء؟. القانون في هذا البلد وفي كل أوروبا يعاقب مرتكبي مثل هذه الجرائم الصحفية. أعداؤنا يتجهون الى القضاء كلما وجهت لهم كلمة جارحة في وسائل الإعلام في أوروبا.

نائل : خليها على الله. أنتم تعرفون خيرا مني طريقة عملنا.

أبو الفضل : لم أكن أعلم أن لنا طريقة في العمل.

نائل : ياعمي فين الشاي؟. حتى الآن لم أشرب كوب الشاي والساعة قاربت الحادية عشرة. نادي على مؤنس يا أبو السعيد .ترى نحن في مكتبك وفي ضيافتك. ثم إنك لم تكرم بعد الأخ منصور كما أرى.

أبو السعيد : معك حق. ماذا تشرب يا منصور؟ شاي أم قهوة؟.

منصور : الأمر سيان، ما تشربون.

أبوالسعيد : روق بالك. كل المشاكل سنحلها بإذن الله. لاتوجد مشكلة حياة أو موت في العالم سوى مشكلة الموت. يامؤنس.. ولك يامؤنس.. يخرب بيته مؤنس، كل ما أردت منه شيئا تفقع حنجرتي بالنداء عليه، وعندما لا أريد منه شيئا أجده يطل علي كل دقيقتين ليسألني إن كنت أريد فنجان قهوة. لا بد وأن أبحث عنه بنفسي. إنتظروا لحظة. يامؤنس يا ملعون أبو اللي شغلك. يازفت. أين ذهبت؟.

نائل : .....

أبو الفضل : .....

منصور : آه...آه.

أبو الفضل : على مهلك علينا يا منصور يا خوي. يازلمه عمرك بطلعش خمسة وعشرين سنة وكل هموم الدنيا على راسك؟.

منصور : بل تسعة عشر عاما.

نائل : كيف الأهل في الوطن؟.

منصور : أهلي؟ أم أهلك؟ أم الأهل الشعب؟.

نائل : أهلي من سكان بيت ساحور.

منصور : أهلي بحالة زفت، وأهلك أكيد في حالة رفت... أما

الأهل الشعب فقد استخدموا هذا الزفت الذي يعيشون فيه ليزفتوا به شارعا فسيحا إسمه الإنتفاضة يبدأ في قلوبنا وينتهي بانتصارنا.

أبو الفضل : والله انك شاعر يا منصور. إن الانتفاضة لم تعلمكم فقط رمي الحجارة وتحدي الرصاص بصدوركم، بل أيضا هذه المشاعر النبيلة والعميقة.

نائل : هذه المشاعر يا أبو الفضل هي الأصل وهي قبل الإنتفاضة ولولاها لما كانت هذه الإنتفاضة وكل الإنتفاضات التي سبقتها في وطننا المحتل.

أبو الفضل : نسيت أن أقول لك أن لؤي قد اتصل بك قبل نصف ساعة ولم يجدك إنه يذكرك باجتماع الليلة.

نائل : لم أنس الإجتماع. الليلة سأجتمع بممثلين عن الفصائل الفلسطينية وعن الأحزاب الثورية العربية كي نتفق على صيغة البيان.

منصور : أي بيان؟.

نائل : بيان بمناسبة عيد العمال هنا. لم يتبق عليه سوىأسبوع واحد. كما أننا سنتفق على ما إذا كنا سنخرج بالمظاهرة جنبا الى جنب مع النقابة الشيوعية أم في مظاهرة النقابة التابعة للحزب الإشتراكي.

منصور : عظيم. والله عظيم. ولكن أين أبو السعيد؟ كنت سأشرح له مشكلتي مادام أبو نبيل غير موجود.

أبو الفضل : الظاهر أنه سيعمل الشاي بنفسه. على العموم إذا كانت مشكلتك تتعلق بالنقود فعليك أن تشرحها لي أنا، ودعك من أبي السعيد فمشاكله تكفيه.

منصور : يبدو أن مشاكلكم في هذا المكتب كثيرة.

أبو الفضل : وكلها مالية، الله وكيلك مافينا أحد يصل الى آخر الشهر صاغ سليم. كيف مطعمك يانائل؟.

نائل : والله حتى الآن لا أعرف خيره من شره. لم يمض على فتحه بعد سوى شهرين .

منصور : هل عندك مطعم عربي؟.

نائل : ما زال جديدا. إنه ليس مطعما بمعنى الكلمة، بل مقهى صغير نبيع فيه الفول والفلافل والحمص .

منصور : عظيم جدا.

نائل : لا يمكن الاعتماد على راتب المكتب. إنه راتب تافه في هذا البلد الأوروبي، وكما يقول أبو الفضل، لا يكفي ولا حتى لمنتصف الشهر.

- ٢ -

هيثم : صباح الخير يا جماعة. كيف الحال؟.

أبو الفضل ونائل : سلامات. تفضل يا رجل.

هيثم : فعلا هنيئا لكم بعملكم. ليس فيه استعباد وليس فيه تعب.

الأهل الشعب فقد استخدموا هذا الزفت الذي يعيشون فيه ليزفتوا به شارعا فسيحا إسمه الإنتفاضة يبدأ في قلوبنا وينتهي بانتصارنا.

أبو الفضل : والله انك شاعر يا منصور. إن الانتفاضة لم تعلمكم فقط رمي الحجارة وتحدي الرصاص بصدوركم، بل أيضا هذه المشاعر النبيلة والعميقة.

نائل : هذه المشاعر يا أبو الفضل هي الأصل وهي قبل الإنتفاضة ولولاها لما كانت هذه الإنتفاضة وكل الإنتفاضات التي سبقتها في وطننا المحتل.

أبو الفضل : نسيت أن أقول لك أن لؤي قد اتصل بك قبل نصف ساعة ولم يجدك إنه يذكرك باجتماع الليلة.

نائل : لم أنس الإجتماع. الليلة سأجتمع بممثلين عن الفصائل الفلسطينية وعن الأحزاب الثورية العربية كي نتفق على صيغة البيان.

منصور : أي بيان؟.

نائل : بيان بمناسبة عيد العمال هنا. لم يتبق عليه سوى أسبوع واحد. كما أننا سنتفق على ما إذا كنا سنخرج بالمظاهرة جنبا الى جنب مع النقابة الشيوعية أم في مظاهرة النقابة التابعة للحزب الإشتراكي.

منصور : عظيم. والله عظيم. ولكن أين أبو السعيد؟ كنت سأشرح له مشكلتي مادام أبو نبيل غير موجود.

أبو الفضل : الظاهر أنه سيعمل الشاي بنفسه. على العموم إذا كانت مشكلتك تتعلق بالنقود فعليك أن تشرحها لي أنا، ودعك من أبي السعيد فمشاكله تكفيه.

منصور : يبدو أن مشاكلكم في هذا المكتب كثيرة.

أبو الفضل : وكلها مالية، الله وكيلك مافينا أحد يصل الى آخر الشهر صاغ سليم. كيف مطعمك يانائل؟.

نائل : والله حتى الآن لا أعرف خيره من شره. لم يمض على فتحه بعد سوى شهرين .

منصور : هل عندك مطعم عربي؟.

نائل : ما زال جديدا. إنه ليس مطعما بمعنى الكلمة، بل مقهى صغير نبيع فيه الفول والفلافل والحمص .

منصور : عظيم جدا.

نائل : لا يمكن الاعتماد على راتب المكتب. إنه راتب تافه في هذا البلد الأوروبي، وكما يقول أبو الفضل، لا يكفي ولا حتى لمنتصف الشهر.

– ٢ –

هيثم : صباح الخير يا جماعة. كيف الحال؟.

أبو الفضل ونائل : سلامات. تفضل يا رجل.

هيثم : فعلا هنيئا لكم بعملكم. ليس فيه استعباد وليس فيه تعب.

أبو الفضل : وليس فيه معاش. شو قصدك؟

هيثم : قصدي أن الترجمة استعباد، فالصحف يجب أن تترجم يوميا، والترجمة كما تعرفون طلوع روح... كلمة كلمة... جملة جملة... والله نظري يتدهور يوما عن يوم.

أبو الفضل : قد ما بتبصبص عالنسوان.

هيثم : احترم نفسك أمام الضيوف. مين الأخ؟.

نائل : إنه شاب من شباب الإنتفاضة. من رام الله.

هيثم : تشرفنا. إسمي هيثم.

منصور : أهلا.

نائل : هيثم هو مسؤول الترجمة هنا. ولكن يا هيثم لماذا تترجم الصحف اليوم فأبو نبيل ربما لن يحضر الى المكتب. إنه مشغول مع أبو منير.

هيثم : لو أنني لا أترجمها لأقام الدنيا على رأسي. وأنا لا أريد مشاكل. ياما أيام ترجمت فيها حتى طلعت عيني ثم لم يحضر الى المكتب أو منعته مقابلاته هنا وأحاديثه الهاتفية التي لا تنتهي من الإطلاع على الترجمة.

ابو الفضل : من ناحية التلفون فأبو نبيل مصيبة. خمسة آلاف دولار دفعنا في الشهر الماضي مكالمات هاتفية من منزله، هذا إضافة الى مبلغ مشابه في مكالمات من

مكتبه.

نائل : خمسة آلاف دولار مكالمات هاتفية؟.

أبو الفضل : لا يوجد شهر تنزل فيه فاتورة الهاتف في بيته عن الأربعة آلاف دولار .

هيثم : ثم يقولون أنه ليس هناك من نقود لرفع رواتبنا المخزية.

أبو الفضل : هذا غير مدارس أولاده.

نائل : طبعا، مدارس انجليزية أو أمريكية، وما أدراكم بأسعارها!.

أبو الفضل : وبيته مجاني، ومصاريف بيته بكاملها تقريبا... يعني مصاريف الفيلا والحديقة والمسبح والسيارتين والسائق والحرس والأطباء والعلاج، كله مدفوع يا حبيبي.

هيثم : لاتزد في همنا ولا تفتح جروحنا. والله العظيم أمس جاء الطبيب ليعالج نهى إبنتي، وكتب لها وصف علاج ولم يكن معي مايكفي لشرائها، ولولا أن زوجتي طلبت نقود من حماتي واشترينا لها الدواء لما كنت أعرف ماذا سأفعل .

نائل : بلاش فضايح قدام الزملة.

منصور : في الوطن نعرف كل شيء تقريبا عما تدور حوله أحاديثكم هنا . ولكنني لم أكن أتصور أن الأمور وصلت الى هذه الحدود من البذخ وانعدام الفائدة.

نائل : انعدام الفائدة ؟ ماذا تعني؟.

منصور : يارجل لي حتى الآن نحو ساعة ونصف في هذا المكتب ، ولقد حضرت الى هنا لأن لدي مشكلة مطبقة على روحي وتكاد تزهق أنفاسي، وجئتكم كي تساعدوني ، وحتى الآن لا أعرف لمن أشرح هذه المشكلة وبعد سماع كل ما سمعته منكم فإنني لم أعد متأكدا من جدوى هذا المكتب ولا مديره ولا موظفيه. وأجدى بهذه النفقات أن تنقذ آلاف العائلات الفلسطينية من الجوع والمعاناة التي تطحنهم كل يوم تحت الإحتلال وتحت الحصار.

نائل : تمهل... تمهل... من قال لك أن هذا المكتب لا جدوى منه؟ أتريد ثورة وشعبا بدون ممثلين عنهما في دول العالم؟.

منصور : ثورة؟ لا أرى من حولي أية ثورة. كل ما أرى هو فيلما هزليا.

نائل : إحترم نفسك وإلا كانت العواقب وخيمة عليك.

منصور : نعم يا حضرة الاعلامي الكبير... يا من تسهر الليالي مفكرا في كيفية الدفاع عن شرف شعبك وعن حقه.

نائل : هذا الولد مجنون. من أحضر هذا المعتوه الى هنا؟. لقد احترمناه إكراما للإنتفاضة التي يقول...

منصور : ألا فاعلم أننا أبناء الإنتفاضة لا نهاب ولا الرصاص

الذي يخترق صدورنا دفاعا عن حقنا وعن وطننا، ولا نهاب سجون إسرائيل ولا التعذيب فيها، لذلك سأقول لك كلمة حق دون مواربة وبدون لف ودوران. هذه الثورة كانت الثورة، أما اليوم فقد اصبحت مهزلة، والثورة الحقيقية لشعبنا اليوم ومنذ سنوات هي الإنتفاضة التي ستحقق له كل ما عجزتم عنه.

نائل : نحن أيضا لا نهاب أحداً. نحن ناضلنا حتى قبل أن تولد أنت ياحضرة البطل الذي أتى هنا ليشتمنا ويشتم الثورة.

أبو الفضل : يا جماعة منصور لم يقصد شتيمة أحد. إنه يتكلم من منطق الجرح .

هيثم : منصور قادم من الإنتفاضة، وشتان بين عقليته وعقليتنا هنا في أوروبا وكل مشاكلنا تنحصر في كيفية الوصول لآخر الشهر دون أن تزداد ديوننا .

منصور : يا إخوان ، يا أخ نائل... ألا تلاحظون حقا أنكم انقلبتم الى مجرد كتبه وموظفين تحت إمرة مدير متسلط ومزاجي يعيش حياة الأثرياء كأنه أحد سفراء الدول الغنية !! عن أية ثورة تتكلمون؟ أما زلتم تعيشون في أوهام الماضي الذي قرأت عنه ولم أعاصره. ألا يمثل هذا المكتب بمن فيه الركض وراء اسرائيل لكسب رضاها بعد أن قامت من تسمونها

ثورة بالإعتراف بها بالكامل؟ وكأني بها وقد أصبحت ثورة معاكسة، أي تسعى لعكس ما ولدت من أجله.

هيثم : نحن هنا لاشأن لنا بمن اعترف بإسرائيل أو لم يعترف. من يسمع كلامنا؟ من يقيم لنا وزنا؟ إنهم يطبخون كل شيء في تونس ولا علاقة لنا بذلك إطلاقا. مديرنا نفسه هو أيضا صفر على الشمال.

نائل : بل لا علاقة للشعب كله بما يجري. ولكنني أريد أن أقول لك يامنصور أننا هنا لنا مهماتنا ولنا عملنا في خدمة القضية. سنين طويلة مرت علينا في هذا البلد قضيناها في خدمة قضيتنا و شعبنا ولقد ضحينا من أجل ذلك بشبابنا واكتفينا لأكثر من عشرين سنة بالراتب الزهيد وبعضنا في هذا المكتب مازال يتلقى المساعدات المالية من أهله رغم تجاوزه الأربعين عاما من العمر لأن غلاء المعيشة هنا لا يعترف به المسؤولون عنا. لقد عشنا في شظف طيلة هذه السنوات من أجل من؟ من أجل شرح قضيتنا وتمثيل شعبنا.

أبو الفضل : معك حق يا نائل. ياله من عدد هائل من السنين هذه التي ضيعناها من عمرنا.

نائل : إن زملاءنا من الفلسطينيين الذين أتوا الى هذا البلد في نفس الفترة التي حضرنا بها نحن أصبحوا الآن

أطباء وتجار ومهندسين ويعيشون حياتهم محترمين وبعيدا عن مشاكل حياتنا التي لا تزيد إلا تعقيدا سنة بعد سنة . ماذا جنينا من خدمة وطننا عشرين سنة؟ نحن لا نريد شيئا يا منصور . فقط نتمنى ألا يأتي شباب في عمر أولادنا ليشتموننا بدون حق.

هيثم : كلامك صحيح يا نائل ولكنه أيضا محزن. صحيح أننا لم نجن شيئا من خدمة وطننا ولكن ما الذي جناه الوطن من هذه الخدمة ؟ بماذا أفدنا القضية طيلة هذه السنوات؟ لاهو استفاد ولا نحن استفدنا، بل استفاد أبو نبيل وآخرون مثله ممن ملأوا جيوبهم وملأوا حياتهم بالبيوت الفخمة والسيارات الفارهة وبالمدارس والجامعات البريطانية والأمريكية.

أبو الفضل : لكنا في هذا المكتب من أبناء الثورة التي كانت وذهبت. وما أجملها تلك من أيام ، عندما كان شعبنا كله، بمختلف اتجاهاته، يكافح وفي خندق واحد من أجل هدف واحد. وكان الفدائيون يغطون وجه الأرض.

هيثم : أما اليوم فاننا نفرح من قلوبنا عندما نستقبل أحدا من أبناء الإنتفاضة مثلك، فأنتم الفدائيون اليوم، وكنا في الأمس نفرح بنفس الطريقة إذا مازارنا فدائي هنا لمعالجة جراحه. أترى يا منصور هل دخلت السجن على يد العدو؟.

منصور : سنتان. خرجت منه قبل نحو أربعة شهور شريطة أن أغادر البلاد.

هيثم : طبعا عذبك الإسرائيليون .

منصور : أنظر... هنا... وهنا... إنها آثار تعذيبهم. أما الجرح فهو من رصاصة أصبت بها عندما كنت أقذف جنودهم بالحجارة. كنت آنذاك في الخامسة عشر من العمر. بقيت شهرا كاملا بين الحياة والموت نتيجة لهذا الجرح حتى من الله علي بالشفاء.

هيثم : ...

أبو الفضل : ...

نائل : إني آسف لغضبي منك قبل قليل يا منصور .

منصور : لاعليك. ولكن لدي سؤال، لمن أشرح مشكلتي في هذا المكتب؟.

أبو الفضل : لي يا منصور . مادامت مشكلة مالية فاشرحها لي. ولكن هيا الى مكتبي. عن إذنكم ياجماعة.

نائل : لا تنقطع عنا يا منصور فبودي لو أتبادل معك الحديث طويلا. خذ، هذه بطاقتي وعليها رقم هاتفي. أنتظر مكالمة منك.

منصور : سأفعل. خاطرك ياهيثم وأعانك الله على الترجمة.

هيثم : أراك فيما بعد. ايضا أريد ان أتحدث إليك.

أبو الفضل : إتبعني يا منصور.

منصور : حسنا.

- ٣ -

أبو الفضل : خير إن شاء الله؟

منصور : مشكلتي معقدة جدا بالنسبة لي ومفجعة بالنسبة لأمي.

أبو الفضل : ووالدك؟.

منصور : إستشهد قبل ثلاث سنوات. كان واحدا من مئات المدنيين الذين قتلهم جيش الإحتلال. لقد جئت الى هذا البلد منذ ثلاثة شهور للبحث عن عمل مؤقت ريثما...

أبو مسعود : السلام عليكم . كيف حالك يا أبو الفضل؟ شو هالغيبه يارجل؟.

أبو الفضل : كنت في إجازة قصيرة . تفضل أدخل . أقدم لك الأخ منصور، من شباب الإنتفاضة. أبو مسعود هو المسؤول عن الأمن.

أبو مسعود : من شباب الإنتفاضة؟ أهلا ومرحبا. بالأحضان يارجل.

منصور : شكرا.

أبو مسعود : لم تقل لي يا أبا الفضل اين قضيت إجازتك القصيرة هذه. إنت يا اخي كم إجازة قصيرة عندك في

السنة؟. أذكر أنك أيضا كنت في إجازة قبل أقل من شهرين.

أبو الفضل : ليس عندي من الإجازات أكثر من غيري في هذا المكتب، بمن فيهم أنت. ولكن قل لي، ما هذه الأناقة؟! قميصك بيير كاردان والبدلة.. دعني أرى... ما شاء الله إيف سان لوران... وربطة العنق... أشوف...لانفان . والله يا عمي لا شك وان فرنسا سعيدة بك وبوجودك على وجه الأرض. صحيح أن أمننا أنيق جدا يا أبا مسعود.

أبو مسعود : ليش أنت يعني ما بتلبس لانفان وبيير كاردان؟.

أبو الفضل : لا والله عمري مالبست هذه الماركات، لأنني أصلا لا أتكلم الفرنسية ... ها ها ها.

أبو مسعود : هاهاها. ولكنك تتكلم الإنجليزية ولذلك لاتشرب إلا ويسكي شيفاز أو جوني ووكر ذو الورقة السوداء، وصاحبك أبو السعيد لا يتكلم إلا الإسباني حيث لا يدخن إلا سيجار كوبيا ومونت كريستو.

أبو الفضل : بل لا يدخن مثل هذا السيجار سوى صاحبك أنت أبو نبيل الذي يكاد ألا ينتزع السيجار من فمه ولا حتى عندما يأوي الى الفراش.

منصور : عظيم. والله عظيم.

أبو الفضل : ماذا؟.

أبو مسعود : شو قلت؟.

منصور : لا شيء. كنت أتحسر.

أبو مسعود : تتحسر؟. أعطه يا أبو الفضل سيجارة دنهل حتى لا يصيبك بالعين.

أبو الفضل : إنك لم تفهمه.

منصور : كنت أتحسر على الثورة وعلى الثوار وعلى رجال علقت فلسطين عليهم آمالها. ولكن الناس على دين ملوكها.

ابو مسعود : شو قصدك؟.

أبو الفضل : قصده أننا جماعة شوربه. لا عليك يا أبا مسعود فإن منصور شاب يعجبك ولكن اللي في قلبه على لسانه، ومعه حق.

أبو مسعود : ولكن الواحد لازم يحترم من يكبره سنا، ونحن تقريبا في سن والده.

منصور : والدي استشهد قبل ثلاث سنين ولم يعرف في حياته الوسكي ولا السيجار ولا البيير كاردان ولا حتى مجرد يوم حلو من يوم ضياع فلسطين.

أبو مسعود : أراك فيما بعد يا أبا الفضل. ترى مش ناقصني سمة بدن.

أبو الفضل : إلى أين يا رجل؟. تعال. عد.

أبو مسعود : مش ناقصني دروس في الوطنية.

أبو الفضل : على مهلك يا منصور لا تطفش الناس منك بهذا الأسلوب.

منصور : إن أسلوبنا هو الذي سيطفش المحتل من بلادنا.

أبو الفضل : ولكن ماذنب موظفي المكتب، إنهم أهلك.

منصور : موظفو المكتب أكن لهم الاحترام، شريطة ألا يقولوا للعالم أنهم يمثلون ثورة وشعبا ذبيحاً، وألا يقولوا لي، أنا المطحون تحت الإحتلال... أنا المقهور صباحاً ومساءاً... أنهم يمثلونني أمام العالم... أو أنهم يقودونني . لا يا أبا الفضل. على الأقل يجب عليكم في هذا المكتب أن تعترفوا بأنكم مجرد موظفين... كتبة... غير ثائرين على شيء في هذا العالم.

أبو الفضل : إذن ما الذي أتى بك الى هذا المكتب مادمنا لا نمثلك؟.

منصور : أولا لأنني في حالة من اليأس وأمامي أحد طريقين ، إما السجن والتعذيب وإما مساعدة من هذا المكتب. وثانيا لأن أموال هذا المكتب هي ملك للشعب ومن المفروض أن تكونوا في خدمة هذا الشعب.

أبو الفضل : كنت اعلم ان مشكلتك مالية. ألم أحزر ذلك من قبل؟. لقد حضرت الى هذا البلد وانتهت نقودك وأتيت لهذا المكتب تطلب المعونة . حالة تتكرر كثيرا منذ بدء الإنتفاضة.

منصور : وماذا فعلتم بالحالات التي سبقتني؟.

أبو الفضل : ليس لدينا ميزانية لمثل هذه الأهداف.

منصور : وكيف سيتبقى لديكم ميزانية لها ونفقات هذا المكتب تكفي لإعاشة قرى بكاملها في قضاء رام الله. نفقات مديركم فقط تكفي لإعاشة سكان مخيم كامل للاجئين في غزة.

أبو الفضل . المصيبة أنك لا تقول إلا الحق. ولكن لا تكن قاسيا معنا وتذكر أننا ننظر إلى المسائل من عالمين مختلفين. أنا أفهمك تماما وأرجو أن تفهمنا. والآن قل لي لماذا غادرت البلاد؟ هل منحك جيش الإحتلال مهلة لتغادر الوطن وهددك بإعادتك الى السجن إن رجعت؟.

أبو فايز : السلام عليكم. كيفك يا أبا الفضل يازينة الشباب.

أبو الفضل : أهلا. أهلا. أدخل يا أبا فايز، والله لتدخل يا زلمه. كيف حالك؟. عندي ضيف من أرض الإنتفاضة، الأخ منصور. أبو فايز، مسؤول المخزن وتوزيع البريد.

منصور : توزيع ماذا؟.

أبو الفضل : أبو فايز يشرف على المخزن وعلى إرسال مكاتبات المكتب الى سائر الجهات، خاصة الى أبناء الجالية الفلسطينية، وكذلك إرسال المجلات التي تصدرها المنظمة.

منصور : منذ حضوري الى هذا البلد سمعت شكاوي لانهاية لها من الفلسطينيين الذين قابلتهم عن تجاهل المكتب الكامل لوجودهم وعن سوء المعاملة التي يتلقونها عند إحتياجهم إليه وعن عدم استلامهم لأية مجلة أو نشرة منه إلا فيما ندر.

ابو فايز : ومنذ متى جئت حضرتك الى هذا البلد؟.

منصور : منذ ثلاثة شهور فقط. لا تزعل مني ، ولكنني أحب أن أضيف أنني شاهدت في مكتب أبو السعيد مئات الكتب المكدسة فوق بعضها وقد أكلها الغبار.

أبو فايز : قلت يا أبا الفضل أنه قادم من أرض الإنتفاضة؟. إنه لوحده إنتفاضة كاملة. ولكن مرحبا بأمثالك يا منصور ممن لا ينافقون ولا يراوغون. الكتب التي شاهدتها في مكتب أبو السعيد هي نسخ من كتاب عن القضية الفلسطينية طبعناه قبل سنين ووزعنا منه بضعة نسخ والباقي ظل مكدسا كما ترى.

منصور : خسارة. ولماذا لا توزعوه؟.

أبو فايز : بيني وبينك، وأبوالفضل يعلم ذلك، من الأفضل عدم توزيعه. لقد طبعه مدير المكتب السابق، كما طبع غيره، ولكن ترجمته من العربية رديئة جدا. شيء مخزي. ولقد تلقينا تنبيهات كثيرة من صحفيين من أهل البلد حول سوء صياغته اللغوية فامتنعنا عن توزيعه عندما جاء أبو نبيل مديرا جديدا.

لقد اتلفنا الكثير من الكتب والمطبوعات في الآونة الأخيرة، والكتاب الذي شاهدته في مكتب أبي السعيد سيأتي دوره قريبا.

ابو الفضل : هي المسألة وقفت على الكتب؟. خلينا ساكتين أحسن

الهاتف : رن... رن...

أبو الفضل : آلو... يا صباح الخير ... مين ؟ نجلاء؟ يا هلا بالسكرتيرات النشطات، والله لولاك ولولا نشاطك لوقع المكتب على من فيه.

الهاتف : ...

أبو الفضل : إتصل بك أبو نبيل خصيصا لذلك؟ ولماذا لم يتصل بي مباشرة؟.

الهاتف : ...

أبو الفضل : ومن أين نجلب له بلال الآن؟ بلال لم يحضر بعد. حسنا. سأحاول العثور عليه. ولكن لاحظي أن هذا من عمل مسؤول الإدارة هنا وليس من عملي.

الهاتف : ...

أبو الفضل : أبو خالد غير موجود؟ وطبعا لا يوجد غير عمو أبو الفضل في هذا المكتب. قلت لك سأحاول العثور على بلال. مع السلامة.

أبو فايز : أبو نبيل سيذهب مع أبو منير الى وزارة الخارجية

ويريد أن يصطحب معه مترجمه الخاص بمثل هذه المناسبات، السيد بلال . اليس كذلك؟.

أبو الفضل : وأين نجد السيد زفت الآن؟ بما أنه طفل أبي نبيل المدلل فإنه يداوم في المكتب على كيفه بدون أية مواعيد، فكل مواعيده يرتبها مباشرة مع أبو نبيل، فلماذا لا يعثر عليه بنفسه؟.

منصور : ولماذا لا يتكلم أبو نبيل لغة البلد؟.

أبو فايز : وهل نحن مجانين حتى نعين ممثلا لنا يتكلم لغة البلد التي يمثلنا فيها؟!.

منصور : قلتم أنه يعمل هنا منذ ثلاث سنوات. ألم يتعلم اللغة بعد؟.

أبو الفضل : يا سيدي اللي قبله قعد هنا ثماني سنوات، وخرج منها زي مادخلها... مثل الأطرش بالزفة... كل ما حكى كلمة بدو مترجم وكل ما سمع كلمة بدو مترجم، وكل ما قرأ كلمة بدو مترجم.

منصور : عظيم... والله عظيم.

أبو فايز : وكيف حال نجلاء؟ راضيه عنك؟ يعني ألم تعد لبهدلتك كما فعلت منذ أيام؟.

أبو الفضل : يا أخي إنها سكرتيرة أبو نبيل . يعني هي تعتقد أنها أصبحت من الصفوة الذين إختارهم الله، مع أنني أدفع لها راتبها بنفسي كل شهر وهو من أصغر

رواتب المكتب، ولذلك تضطر في المساء الى العمل في مؤسسة تجارية.

منصور : ولكن كيف تعمل سكرتيرة مدير المكتب في مصلحة أخرى غير فلسطينية وعندها كل اسرار مدير المكتب؟ وربما مخترقة من طرف الأعداء؟!.

أبو الفضل : والله إنت لازم تشتغل هنا مسؤول الأمن بدلا من الصنم اللي إسمه أبو مسعود والذي يفهم بالأمن ما أفهم أنا بالتنويم المغناطيسي.

أبو فايز : أتعرف؟ لقد مررت قبل يومين أمام المكتب بسيارتي نحو الساعة الثالثة فجرا فرأيت الباب الخارجي مفتوحا والأنوار تشعشع عبر النوافذ فنزلت من السيارة ودخلت الى الحديقة ثم الى الباب الداخلي فوجدته مفتوحا أيضا فدخلت و تجولت في طوابق المكتب الثلاثة فلم أجد به أحد فأطفأت الأضواء وأغلقت الباب ثم بوابة الحديقة. هذه الحالة تكررت معي عدة مرات ومع زملاء آخرين في المكتب مرات أخرى.

منصور : عظيم. عظيم جدا.

أبو الفضل : لولا أن ربك بيسلمها لطار هذا المكتب من أساسه في الهواء.

أبو فايز : لأ والمصيبة أن الإسرائيليين هنا والصحف التابعة لهم تتهمنا بأننا في هذا المكتب عباقرة الإرهاب الذين

يخططون لشبكات كاملة ومعقدة من الإرهابيين في كل أوروبا. حمدا لله أنهم لايعرفون شيئا عن الحقيقة.

منصور : ومن قال لك أنهم لا يعرفون الحقيقة؟.

ابو الفضل : أرجوك يا أبو فايز أن تقول لهيفاء ان تبحث عن بلال بسرعة ، عبر الهاتف، وأن تخبره باللحاق بأبي نبيل بعد ساعة في وزارة الخارجية.

أبو فايز : هذه البنت كلما طلبت منها شيئا تقول أنه ليس شغلها.

أبو الفضل : ليس شغلها ؟ إنها سكريتيرة المكتب. قل لها أنها الكل بالكل وسرعان ما تخدمك.

أبو فايز : أفضل أن أطلب هذا الطلب من وداد، موظفة الهاتف .

أبو الفضل : لا تضيع وقتك. هذه ستقول لك أن شغلها هو الرد على الهاتف وليس البحث عن الناس عبر الهاتف وأن هذه المهمة هي من إختصاص نجلاء سكرتيرة أبو نبيل، ومعها حق بذلك.

أبو فايز : يعني ماشاء الله الشغل على وداد مقطع بعضه... كأن المكالمات تنهال علينا بالمئات ، إنها طيلة الدوام تكش دبان.

منصور : عظيم ، والله عظيم.

أبو فايز : على العموم لاتقلق. سأبحث عن بلال بنفسي. أراك فيما بعد.

أبو الفضل : أبو فايز. لحظة من فضلك.

أبو فايز : خير؟

أبو الفضل : يا رجل إننا نحاول طيلة الصباح تناول فنجان شاي أو قهوة ولكننا لا نجد أثرا لمؤنس الفراش. أرجوك لو رأيته أن تقول له أن يحضر لمكتبي.

أبو فايز : صعب.

أبو الفضل : صعب؟ لماذا.؟ هل ترقى الرجل الى منصب رفيع دون علمي؟.

أبو فايز : كلا، بل ذهب صباحا الى بيت أبي نبيل ليساعد الطباخ في إعداد الغداء على شرف ابي منير.

أبو الفضل : ولكن عند أبو نبيل طباخ وخادمتين، فألا يكفي؟ لازم أيضا أن يأخذ مؤنس ويتركنا جميعا بدون خدمة؟!.

أبو فايز : يعني لو أن أبا نبيل يطلب منك أن تذهب لبيته لأي مهمة ألا تراك تذهب؟ طبعا تذهب. إنك مأمور ومؤنس مأمور وأنا مأمور ومغلوب على أمري وملعون أبوي في هذا المكتب.

أبو الفضل : فشر . طبعا لا أذهب. أنا لا أفعل شيئا بعيدا عن مهمتي ووظيفتي. أتقارنني يا أبا فايز بمؤنس؟.

أبو فايز : أنا لا أقارن أحد بأحد. ولكننا جميعا هنا صفر على الشمال. شمال أبي نبيل طبعا. إنك الآن تقوم بمهمة بعيدا عن مسؤوليتك وفقط لأن أبا نبيل طلب منك، عبر سكرتيرته، أن تأتيه ببلال من تحت الأرض. على هامان يا فرعون؟ . الى اللقاء. إلى اللقاء يا منصور.

منصور : إلى اللقاء.

أبو الفضل : والله يارجل أن العمل في هذا المكتب كأنه جلسة تعذيب يومية.

منصور : ولم لاتطلب نقلك الى مكتب آخر في بلد آخر؟.

أبو الفضل : لي أصدقاء في كل مكاتبنا في اوروبا تقريبا. معظمها من نفس العينة، الله وكيلك.

منصور : متأسف. لا أريد إزعاجك. يبدو أن مزاجك قد تعكر. سأذهب للبحث عن أبي خالد أو أبي السعيد؟.

الهاتف : رن ...رن.

أبو الفضل : آلو... أهلا أبو مؤيد... كيف الأحوال؟.

الهاتف : ....

أبو الفضل : ولكن عندي الآن زائر لديه مشكلة. لماذا لا أراك فيما بعد؟.

الهاتف : ....

أبو الفضل : حسنا. سآتيك حالا. سأحضره معي.

منصور : خير إن شاء الله؟.

أبو الفضل : كل خير. إتبعني.

منصور : ولكن... مهلا...

أبو الفضل : إنه أبو مؤيد، نائب مدير المكتب ، يريد أن يراني لمسألة تشغله وفي نفس الوقت ننتهز الفرصة لنطرح عليه مشكلتك بحذافيرها. أبو مؤيد إنسان يعجبك. إحذر من هذه الدرجة المكسورة. ولكن أرجوك عدم التمادي في كلامك معه لأنه سريع الغضب.

منصور : ولكنني لم آت الى هنا للتمادي على أحد. جئت لأن عندي مشكلة ولا أريد سوى حلها.

أبو الفضل : إتبعني حتى آخر هذا الممر. سلامات يا نجلاء.

— ٤ —

أبو الفضل : السلام عليكم.

أبو مؤيد : وعليكم السلام. تفضلا. أهلا وسهلا.

أبو الفضل : أقدم لك الأخ منصور عطيه. من رام الله. من أبطال الإنتفاضة.

أبو مؤيد : حلت البركات يا أخ منصور. تشرفنا. تفضل بالجلوس.

منصور : الشرف لي.

أبو الفضل : ما القصة؟. لاحظت على التلفون أنك قلق.

أبو مؤيد : لا. أبدا. القصة وما فيها أن جمعية أصدقاء فلسطين، وكل مؤسسيها وأعضائها من أهل هذا البلد المخلصين بالدفاع عن قضيتنا ، طلبت مني أن أرسل لهم شخصا منا ليلقي بعض المحاضرات عن القضية الفلسطينية ضمن مهرجان ثقافي كبير تقيمه خصيصا لشرح مأساة شعبنا منذ أن طرده الإسرائيليون من أرضه في ١٩٤٨ وحتى اليوم. وسيقام هذا المهرجان في الأسبوع المقبل شمالي البلاد.

أبو الفضل : إنها لجمعية ممتازة كثر الله من أمثالها في أوروبا. ولكن أين تكمن المشكلة؟.

أبو مؤيد : يا سيدي المشكلة أنني لا أجد أحدا في المكتب أعتمد عليه في هذه المهمة.

أبو الفضل : يعني ذات المشكلة تتكرر من حين الى آخر.

أبو مؤيد : نعم. فأبو نبيل كما تعرف هو خارج هذه اللعبة أساسا.

منصور : لماذا؟.

أبو الفضل : لأ نه لايتكلم لغة البلد. أحيانا يقوم بإلقاء مثل هذه المحاضرات، ولكن محاضراته تتحول الى نوع من تعذيب الحضور، حيث كل جملة يجب أن تترجم وتصبح العملية لا نهاية لها . ثم أن الترجمة قلما تعبر بصدق عن العبارات الأصلية.

أبو مؤيد : أما أنا فلدي إرتباطات في الأسبوع المقبل تمنعني من إلقاء هذه المحاضرات.

أبو الفضل : ونائل؟ إنه مسؤول الإعلام ولقد ألقى محاضرات من هذا النوع فيما مضى.

أبو مؤيد : ولكنك تعرف أنه لم يلق محاضرة واحدة منذ قدوم أبو نبيل الى المكتب.

منصور : لماذا؟

أبو الفضل : أبو نبيل غير راض عنه. هكذا وبكل بساطة. لذلك فقد جعل مسألة المحاضرات والمشاركة في الندوات أو المقابلات الإذاعية والتلفزيونية مقصورة عليه وعلى أبي مؤيد.

منصور : عظيم . فعلا عظيم.

أبو مؤيد : ماذا قلت يا أخ منصور؟.

منصور : لا. أبدا. كنت أحدث نفسي.

أبو الفضل : وما العمل؟.

منصور : ولكن!! أليس من بين كل موظفي المكتب من يمكن تكليفه بهذه المهمة؟!.

أبو مؤيد : ...

أبو الفضل : أنا شخصيا شغلي هو الحسابات ولم يكن لي شأن أبدا بإلقاء محاضرات. أما باقي الموظفين فكل واختصاصه.

منصور : نعم؟! وقضية شعبنا ؟ ومعاناته على يد المحتلين المجرمين؟ وتشرده ومهانته منذ ١٩٤٧؟ من يشرحها لمثقفي هذا البلد؟.

أبو مؤيد : يا أخ منصور من الواضح أنك جديد على هذا البلد وعلى أوروبا. إن إلقاء محاضرة على جمهور من المثقفين، وما يلي من ذلك من أسئلة توجه للمحاضر من طرف الجمهور ، وكثيرا ما تكون أسئلة محرجة أو تتطلب معرفة عميقة بموضوع المحاضرة، يجعل من الضروري أن يكون مستوى المحاضر الثقافي عاليا وأن تتوفر فيه إضافة الى ذلك الجرأة وسرعة البديهة.

أبو الفضل : وهي عناصر لا تجتمع لأحد من موظفي المكتب، بمن فيهم محسوبك.

منصور : عظيم. والله عظيم.

أبو مؤيد : ماذا؟.

أبو الفضل : إذن ما العمل يا أبا مؤيد؟.

أبو مؤيد : لقد فكرت بكامل، ممثل الجبهة الشعبية في هذا البلد. ليست هي أول مرة نلجأ بها إليه. وهو كما تعلم دائم الإحتجاج على ما يسميه بانفرادنا بمثل هذه المناسبات الشعبية وعدم إتاحة الفرصة لممثلي الفصائل الأخرى للمشاركة بها. فما رأيك؟.

أبو الفضل : فكرة ممتازة تضرب بها عصفورين بحجر.

أبو مؤيد : ولكن هل تعتقد أنها خطوة سيرضى عنها أبو نبيل؟. إنني لم أتمكن من الحديث إليه منذ بداية الدوام، ولقد اتصل بي رئيس الجمعية عدة مرات اليوم يطلب مني تاكيد إسم الشخص المحاضر من أجل إدراجه ضمن برنامج المهرجان الذي سيطبع وسيوزع بالبريد، ولقد وعدته أن أتصل به خلال نصف ساعة.

أبو الفضل : والله من ناحية أبو نبيل فلا أدري إن كان سيرضى عن هذه الخطوة أم لا، فردود فعله غير مضمونه.

منصور : إسمحا لي بالتدخل مرة أخرى. المهم هو شرح قضيتنا للأجانب وخاصة منهم المثقفين، وليس المهم أن يرضى أبو نبيل أو أن يغضب.

أبو مؤيد : كلامك صحيح. ولكن عملنا هنا فيه اعتبارات أخرى وظروف ربما تغيب عن ذهنك.

منصور : إذا كان الأجانب قد أسسوا مثل هذه الجمعية للدفاع عن حقوقنا ونظموا مثل هذا المهرجان لشرح قضيتنا، فأي تبرير يمكن أن يوجد على وجه الأرض لترددنا نحن بالمشاركة الفعّالة في مهرجانهم الثقافي أو لتأخرنا في تلبية طلبهم؟.

أبو الفضل : من رأيي أن نكلف كامل بهذه المهمة دون تردد، فله خبرة في هذا المضمار وقد شارك بجدارة في كثير من المهرجانات والمؤتمرات طيلة السنوات الأخيرة.

أبو مؤيد : هذا ما كنت أريده منك يا أبا الفضل. رأيك بتكليف كامل بهذه المهمة ،فأنت تعلم مدى ثقتي برأيك أنت بالذات.

أبو الفضل : بعد عشرين سنة من العمل سوية أصبحت الثقة متبادلة يا أبا مؤيد.

منصور : عشرون سنة؟.

أبو الفضل : نعم. يعني من قبل أن تولد حضرتك.

منصور : وهل انتما أقدم موظفي المكتب؟.

أبو مؤيد : كلا. معظم الموظفين هنا بدأنا بالعمل معا قبل عشرين عاما تعاقب خلالها علينا عدد من المدراء فيهم الصالح والطالح.

أبو الفضل : الآن وقد تم البت بمسألة المحاضرات أريدك يا أبا مؤيد أن تحاول حل مشكلة أخرى تتعلق بالأخ منصور. والمسكين دوخناه في المكتب من غرفة إلى غرفة منذ أكثر من ساعتين ونحن بعد لا نعرف ما هي مشكلته بالضبط ذلك أننا خضنا معه مواضيع شتى ولم نمكنه من شرح مشكلته.

أبو مؤيد : خير يا منصور؟.

منصور : باختصار يا أبا مؤيد فإن الإسرائيليين أخرجوني من السجن قبل أربعة شهور شريطة أن أغادر الوطن، وهددوني إن رجعت بإعادتي الى المعتقل من جديد.

ولقد جئت إلى هذا البلد بحثا عن عمل مؤقت ولكن دونما فائدة حتى إنتهت النقود القليلة التي أحضرتها معي ، ولي أكثر من شهر أعتمد على مساعدة بعض الأخوة الفلسطينيين هنا مما إضطرني إلى الحضور إلى المكتب لطلب المساعدة منكم.

أبو مؤيد : ولكنك تعلم يا أبا الفضل أن مشكلة كهذه لا يحلها سوى أبو نبيل شخصيا.

منصور : ولكن يا أبا مؤيد؟ هل هناك إمكانية للحصول على مساعدة من المكتب؟ إن وضعي أصبح لايحتمل وربما أفضل السجن والتعذيب في أرض الوطن على هذه المهانة. لولا خشيتي على والدتي لكنت عدت الى المعتقل بلا تردد ، أو لما كنت أصلا قد قبلت بمغادرته تحت هذه الشروط.

أبو مؤيد : أكرر يا منصور أن القرار يعود الى أبي نبيل.

منصور : ولكن أبا الفضل أخبرني أنه ليس من ميزانية أساسا لديكم من أجل هذه المساعدات.

أبو مؤيد : صحيح . ولكننا أحيانا نقدم هذه المساعدات من الأموال المخصصة لبنود أخرى.

أبو الفضل : أخشى يا منصور أنك ستضطر للعودة للمكتب غدا كي تتمكن من مقابلة أبو نبيل.

أبو مؤيد : لا مفر لك من العودة غدا.

أبو الفضل : غدا ندخلك على أبي نبيل فورا، وأكيد سيكون معه أبو منير، ومن شأن ذلك أن يسهل الأمور لك.

منصور : أو أن يعتذر أبو نبيل بحجة أنه مجتمع مع أبو منير.

أبو مؤيد : على العموم سأعطيك عنوان جمعية فلسطينية هي الوحيدة الموجودة في هذا البلد، وقد سبق لها وأن قدمت مساعدات متواضعة لعدد من الشباب قبلك، وأرجو أن يكون بوسعهم مساعدتك.

أبو الفضل : جمعية القدس؟ اليس كذلك؟.

أبو مؤيد : وهل يوجد غيرها؟ إليك تلفون رئيسها يا منصور، وقل له أنك تتصل به من طرفي.

منصور : شكرا. أستأذن بالإنصراف.

أبو الفضل : سأرافقك.

أبو مؤيد : مع السلامة. ننتظرك غدا يا منصور.

منصور : إن شاء الله.

أبو الفضل : مرة أخرى سنجتاز هذا الممر وسأضطر لإلقاء التحية على نجلاء عند المرور بباب مكتبها. آه إنها غير موجودة . وهل لديك نقود يا منصور؟.

منصور : نعم. لدي.

أبو الفضل : طيب خذ هذه الورقة الآن.

منصور : لا لا. أنا لم آت إلى هنا لأشحذ.

أبو الفضل : يا أخي إن شاء الله بكره تنفك العقدة. أما الآن فخذ

هذه يا بني.

منصور : إنك إنسان شهم يا أبا الفضل . ولكنني سأنتظر حتى غد لأرى النتيجة في هذا المكتب، وإني لا أتوقع خيرا. أرجوك إحتفظ بنقودك.

أبو الفضل : حسنا. لكن إذا احتجت شيئا فلا تقسو على نفسك واعلم أن معرفتي بك اليوم، رغم قصرها، جعلت لك مكانة في قلبي ، فلا تخيب ظني.

منصور : شكرا يا أبا الفضل. الشعور متبادل.

أبو الفضل : لا تنسى أن تتصل بجمعية القدس.

منصور : سأتصل بهم اليوم.

أبو الفضل : مع السلامة. ننتظرك غدا.

منصور : إلى اللقاء.

1992

مــريم

شعر في أوج لعبه مع إبنته مريم، التي ستحتفل بعد أيام بعيد ميلادها الخامس، أن الدنيا لاتتسع له من فرط السعادة وحب الحياة. وفي عز لهوها وصياحها وهرجها وتقلبها العنيف بين ذراعيه محاولة الافلات من قبضتهما ، وبينما كان ضحكها يرش أرجاء البيت عطرا وأريجا ، كان هو لايكف عن تأمل وجهها وقد تورد وأحمر في ذروة نشاطها وحركتها.

كان يشعر أن لعبه مع طفلته هو ضرب من الصلاة التي تسمو به على جناحي الحبور والرضا إلى علياء البهجة الكاملة . إنها صلاة لخالق السموات والأرض... خالق البشرية... كيف يجعل من الإنسان أكثر من إنسان واحد... جنينا فوليدا فرضيعا فحابيا فطفلا فصبيا ففتى فشابا فرجلا فكهلا فشيخا فعجوزا. سبحانك اللهم ، أسجد للطفولة التي خلقتها .. لأنها أروع ما عمرت به الأرض... كيف يترعرع الإنسان كما الزهر ويتفتح... يتلعثم، يحبو، يمشي، كيف يتلمس الكون من حوله ، كيف يدركه رويدا رويدا. سبحانك اللهم . أية رقة أودعت في الطفولة.. أية عذوبة أية حلاوة أية سذاجة.. أي جمال.. أية متعة للعين . أية استراحة للقلب.. أية سعادة للوالدين. سبحانك اللهم على مخلوقك الطفل.. كيف يتحول بشرا

سويا ناضجا فكأن ذلك الطفل ما كان... كأنه مات.. كأنه رحل الى عالم آخر. أبناؤنا يكبرون ويشبون أم أنهم كلما كبروا يموتون متفتقين عن أبناء آخرين... لحظة فلحظة يتخلقون، يوما فيوما ينمون... حولا فحولا ينشأون... ويتبدلون، ونحن لا نعي ذلك الا على ومضات متقطعة ومتباعدة، لا نقوى على أن نصدق ما تشاهده أعيننا، فكأنما يحدث لأول مرة في التاريخ. نريدهم كبارا وفي ذات الوقت نريدهم أطفالا يانعين نضرين.

وفي خضم أفكاره هذه ضم إبنته إلى صدره بحنان هدار ، فيه كل الحب الذي يقدر عليه إنسان... كل الحنان الذي بذره الله في الأرض يثمر لحظة عناق الأم أو الأب لطفلهما... نريدهم يارب هكذا صغارا ضعفاء يلجأون دوما إلى صدورنا، ونريدهم شبابا قد إشتد عودهم، يملأوننا فخرا ونشوه... وبينما هم يكبرون نكبر نحن أيضا ونشيخ ولا نعي ذلك الا على ومضات... ونود لو نتعلق بأذيال الزمان... نستوقفه.. نستحلفه بالله أن يسكن لحظة.

وراحت الصغيرة تحاول الإفلات من بين ذراعيه من جديد ، باذلة قصارى جهدها للتملص منهما. وكانت كلما فكت نفسها وأفلتت، بتسهيل من أبيها بالطبع قفزت جذلى فرحة تردد له بصوت يهز جدران البيت أنها قوية جدا وأنه ليس بوسعه أن يمنعها من الإفلات من قبضته. ثم بعد ذلك تعود لتحبس نفسها بين ساعديه مرة أخرى في تحد جديد تتطلع فيه إلى اثبات شطارتها وقوتها لأبيها علها بذلك تحتفظ باهتمامه بها إلى أطول وقت ممكن صارفة اياه عن أختها الكبيرة وشقيقها الرضيع.

وعاد يتأمل الوجه المتورد وجماله الساحر ، يتمتع بتأمله أشد متعة. وتذكر طفولته هو... لحظات متفرقة من تلك الطفولة البعيدة... تلك المرحلة من عمر الإنسان هي الوردة الفواحة الفريدة فيه، والتي يظل شذاها عابقا يلف الوجدان حتى ساعة الممات. أما طفولة أبنائنا فهي البستان المعطار الوحيد الذي يتاح لنا دخوله بعد طفولتنا، والفارق بينهما شاسع، وهو لصالحنا، فالإنسان منا لايعي طفولته الا وقد فات الأوان وذهبت أدراج الرياح... أما طفولة أبنائنا فنعيها ان شئنا كل الوعي، ونتمتع بها يوما بعد يوم... بامكاننا أن نتأملها حتى الغرور ونتحسسها حتى الادراك ونلمسها حتى الخدر ونلثمها حتى الذوبان ونصغي لها حتى الطرب... فهي طفولتنا الثانية التي يعجز أطفالنا عن تذوق شهدها وأدراك أبعادها. وتنبه من جديد على ابنته تصرخ به في خضم لعبها:

- هيا مرة أخرى يا بابا. أمسكني الآن جيدا، لاتدعني أفلت. سترى كم أنا قوية يا بابا.

عشرون أو ثلاثون مرة أمسكها وتركها تفلت من يديه ، وهي لاتكل ولا تسأم. فقال لها وهو يطبع على خدها قبلة جديدة:

- الآن سترين. لن تتمكني من الإفلات هذه المرة، سأشد عليك بكل قوتي.

وشد عليها قليلا فاذ بها تصرخ متأففة:

- لا تمسكني بهذه القوة يا بابا. انه مجرد لعب.

سبحان الله. هي تعلم أنه لعب وتريد في نفس الوقت أن تقنع أباها بأنها قوية... يا لمنطقكن العجيب أيتها النساء... بل أيتها

الطفلات الرائعات.

وفي ذروة نشوته الأبوية اذ بابنته تقول وهي تصارع ساعديه:

- بابا ، بابا، توقف للحظة.

- أتوقف؟ لماذا؟ أستخدعينني يا شاطرة لتفلتي مني بالحيلة ؟ هذا ليس عدلا يا حبيبتي.

وتوقفت عن العراك وهي تلهث والابتسامة الواسعة قد حولت وجهها شمسا مشرقه، ثم قالت ضاحكة:

- لا والله يا بابا. فقط اريد أن أسألك شيئا.

وتوقف عن الضغط عليها بين ساعديه وعيناه تتغذيان سعادة من عينيها ، فسألته:

- هل تعرف ما هو يوم الأربعاء؟.

- يوم الأربعاء؟ .

وترددت ضحكتها كزقزقة العصافير وهي تقول ازاء استغراب ابيها من السؤال:

- الأربعاء يا بابا. لقد سألت ماما وقالت لي أنه سيكون يوم الأربعاء .

وتصنع أنه لم يدرك مغزى حديثها، فقال لها:

- آه. انه عيد ميلادي ياحبيبتي؟.

وضجت ضاحكة من جديد وهي تردد:

- عيد ميلادك ؟ كم عيد ميلاد لك يا بابا؟. لقد احتفلنا بعيد ميلادك وانتهى الأمر.

- آه. صحيح. معك حق . اذن فالأربعاء سيكون عيد ميلاد أختك لمياء. أترين كيف أعرف.

وقرقرت في ضحكها وهي تردد:

- كلا. كلا. انك لاتعرف ما هو يوم الأربعاء.

- اذن فلماذا لا تقولين لي وتريحينني. انني رجل عجوز فقدت الذاكرة.

وأغربت الطفلة في ضحكها الرنان ، الذي كان له وقع أعذب الموسيقى على سمع أبيها، وقالت وهي تغالب الضحك:

- عجوز يا بابا؟ انك بعد مازلت شابا فلا تقل مثل هذا الكلام. ان يوم الأربعاء هو عيد ميلادي.

وتصنع المفاجأة. وضرب بيده على جبهته وهو يقول:

- آه. بالفعل. انه عيد ميلادك ياحبيبتي. وسنعمل لك هنا حفلة جميلة كما إتفقنا.

- لقد كبرت سنة أخرى يا أبي وأصبحت أكثر قوة، وسأثبت لك ذلك الآن . هيا أمسك بي من جديد.

وسارعت بالعودة الى ما بين ذراعيه وهي تدعوه ليمنعها من التخلص منهما، أما هو فقد راح يفكر بعيد ميلادها الآزف، فكأنما عاود الإنتباه الى ساعة الحياة وعقربيها المتسابقين... غدا تكبرين يا ابنتي، كما كبرت أختك. ولمعت في ذاكرته الدموع التي شاهدها في عيني والده أكثر من مرة وهو يتأمله ويتأمل اخوته وقد أصبحوا رجالا ونساءا لهم أولادهم... آه ياصغيرتي لو تعرفين كم تألمت عندما

سمعت والدي يقول لنا قبل أيام وعيناه محمرتان تغالبان الدمع المترقرق فيهما: - «أيا ليتني أعود للحظة واحدة إلى تلك السنوات السعيدة، عندما كنتم صغارا تركضون وتلعبون ويضج بكم البيت حتى يكاد يميد. تلك الأيام التي كنتم تلعبون فيها بين رجلي كالقطط وتجلسون على حجري فأحضنكم وأشم عبير طفولتكم... ما أسعدها من أيام هي أجمل ما في الحياة». لكم آلمه سماع هذا الكلام من أبيه ، لعدة مرات خلال السنوات الأخيرة... كان فيها يتألم لألمه... وينظر الى عينيه فيرى فيهما اطلالة حنين والتياع... ومعالم شيخوخة. كان يتمنى لو أنه يعود طفلا ولو للحظة كي يحقق لأبيه تلك الأمنية الغالية والمستحيلة.

وغاب الرجل عن دنياه للحظات تخيل خلالها أن العمر قفز به لأكثر من ربع قرن نحو المستقبل، فأصابه الذعر. وعاودته عينا والده والدمع يترقرق فيهما، وتخيل أبناءه الثلاثة وقد كبروا وابتعدوا عنه وعن أمهم وانشغلوا بأبنائهم وأزواجهم، فهذه سنة الحياة وعجلتها التي لاتملك سوى الدوران الحثيث الذي لايبقى على شيء وينتهي بكل شيء الى الفناء . ورآى نفسه أشيب الرأس قد ملأت وجهه التجاعيد وخبا البريق من عينيه ووهنت عظامه ودب الألم في مفاصله، وتخيل زوجته وهي في حال مشابه لحاله، وكلاهما في البيت وحيدين بلا مستقبل ولامشاريع ولا أقرباء ولا أصدقاء، فمعظمهم قد تساقط على طريق الزمان، الواحد تلو الآخر.

وتصور طفلته الحلوة وقد أضحت سيدة وانشغلت عنه وعن أمها بألف صغيرة وكبيرة يتكون منها مشوار الحياة القصير، ورآها وهي لا

تذكر من لعبها معه في طفولتها سوى مشاهد عابرة كادت السنوات المتراكمة أن تمحو معالمها من الذاكرة. وتصورها وهي بعيدة عنه في حياتها المستقلة لا تحتاجه بشيء ، وهي التي أمضت سني طفولتها ملتصقة بأبويها ومعتمدة عليهما في كل شؤون حياتها العذبة، بل ولسنوات أخرى كثيرة بعد الطفولة.

ورآى الكون من حوله يبابا والأفق خاويا، وعجوزين في البيت قابعين لا قيمة لهما في قلوب أولادهما سوى تلك التي يفرضها عليهم الحد الأدنى من الرحمة أو الحنان أو الخجل... والأسماء سيان مادامت النتيجة واحدة. وتخيل نفسه وزوجته جالسين لوحدهما في منزل لا يسمع فيه سوى سعالهما، ينتظران بفارغ الصبر أن يطرق بابهما ولو مرة في الاسبوع أو أن يرن جرس الهاتف ولو مرة في اليوم . ورآى نفسه لايجتمع بأبنائه إلا في مناسبات متفرقة، وهو ينظر إليهم بشوق وحنان ويرى فيهم صغاره الذين طالما أكلوا من راحة يده، كما العصافير، بينما هم ينظرون إليه فلا تهزهم ذكرى ولا ينتفض لهم قلب، فمسؤولياتهم لا تدع لهم فرصة لمثل هذه الأمور العاطفية تجاه شيخين ليس فيهما سوى ماض وذكريات . شيخان مرشحان للموت في أية لحظة، حتى ان منيتهما تصبح، اذا ما حانت ووقعت، مجرد مناسبة حزينة للابناء، متوقعة ومنتظره، سرعان ما يطويها النسيان بعد اسابيع من الحزن الروتيني يجرفهم بعدها تيار حياتهم اليومية الى النسيان التام، اللهم الا ذكرى عابرة عنهما تعتري اذهانهم وترتعش لها قلوبهم من وقت لوقت بينما هم يتأملون نمو الابناء بشغف وخوف من المستقبل.

وهاله المنظر القاتم الذي تجسد في مخيلته وارتعدت فرائصه وهو يتصور نفسه يتلوع على لحظة سعيدة يقضيها بسلام وحبور مع أطفاله، فاخضوضلت عيناه بالدمع.

- بابا. بابا. ماذا بك ؟ لماذا لا تشد علي ؟ لماذا لا تلعب؟ لماذا دمعت عيناك؟.

وشده صوت طفلته من عالم المستقبل ليعيده الى اللحظة الحاضرة فتأمل عينيها كأنه يستيقظ من كابوس مروع وعانقها بقوة كأنه يمنعها من أن تفر من بين يديه. وراحت الصغيرة تحاول الافلات منه متذمرة حتى اضطر أن يتركها تفلت كما الحمامة التي تنطلق من عشها. ولكنه كان يشعر بسعادة عارمة. كما لو أنه تمكن من تحقيق حلم أبيه، ولكن لنفسه، فها هو قد عاد القهقرى بالزمان من الشيخوخة الى الشباب... وها هو يعود الى احتضان صغيرته، وينعم بقرب اطفاله، فابنته الكبيرة ذات التسع سنوات تشاهد التلفاز في الصالة بينما ابنه الرضيع يحتكر كل رعاية أمه في الغرفة المجاورة. وعجب للإنسان كيف لا يقدر كل لحظة من عمره يقضيها مع صغاره حق قدرها... وكل لحظة يعيشها مع كباره الماضين نحو الأفق البعيد. حتى إذا مر الزمان، ضرب الكف بالكف ، وتلفت حوله فلم يجد من جنة الأمس سوى صحارى الذكريات.

وحمل صغيرته بين ذراعيه وهي في غاية السرور ومضى بها حيث تجلس ابنته الكبيرة، فضمها اليه وهي تحاول التخلص من عناقه كي يتسنى لها متابعة فيلم الرسوم المتحركة على شاشة التلفاز.

ثم انتقل الى جوار طفله الأصغر فحمله بين يديه، رغم إحتجاج

زوجته، وضمه إليه برفق وهو يتأمله مليا وابنته مريم تشده من ثيابه وتدعوه لمواصلة اللعب، ثم أطلق ضحكة سعادة وهو يردد بصوت عال، وزوجته لا تفهم تصرفه ولا تحدس ما يدور بخلده:

- يا بني. كم أنا سعيد بأن يكون يومنا هو اليوم.

1984

الأشقر

كان القطار يسير الهوينا ، فكأنه سائر على أقدام بشرية وليس على عجلات حديدية، لكنني كنت سعيدا ببطئه ، فقد كان يتيح لي تأمل المناظر الخلابة التي كانت تمر تباعا عبر النافذة، بأحراش الصنوبر الكثيفة وبالهضاب الخضراء المرصعة بأشجار البلوط حينا وبالزيتون حينا آخر وبضروب أخرى من الشجر والشجيرات ما عرفت لها اسما. وأحيانا كان يفاجئوني أرنب بري يجري مذعورا لدى مرور القطار يتفجر زعيقه في هدأة الصباح وسط تلك الطبيعة الوادعة.

كنت متوجها الى بلدة سيغوفيا، في قلب قشتالة، وقد أصبحت من مدريد على مبعدة كافية تقيني من شرور حرها المزهق للأنفاس وضجيجها الذي لا يطاق وفظاظة أهلها الذين جاؤوها من أنحاء اسبانيا تاركين في بلادهم الأصلية دماثة الخلق والتهذيب.

كنت تواقا للوصول الى سيغوفيا شمالا للتمتع بجوها الرقيق ونسماتها المنعشة الكفيلة بتحويل حر أغسطس ذاك الى هواء عليل ونسمات ربيعية. وكنت أتوق أيضا الى مراقبة غروب الشمس خلف الجبال المحيطة بتلك المدينة، فان الله قد أبدع في صنع الغروب فجعل منه آية من آيات الجمال، ولكنه خص غروب سيغوفيا بروعة مميزة هي أسمى ما توصل اليه عز وجل في تصوير هبوط الشمس خلف التلال

والحقول.

وتذكرت زياراتي السابقة لسيغوفيا والتي تكررت طيلة السنوات الخمس الأخيرة وكنت أقضي فيها فترات قصيرة تمتد لأقل من يوم وأحياناً لأسبوعين عرفت أثناءها لطف أهل المدينة واقبالهم على الغريب بود واحترام لم أعهدهما في مدريد.

ومر القطار بعدد من القرى والمصايف التي يؤمها سكان العاصمة حال حلول القيظ ، قبل أن نصل الى محطة سيغوفيا. وتنفست الصعداء وقد أصبحت في مأمن من مدريد وروتين الحياة المملة فيها وفكرت بشوق بالأسبوعين اللذين كنت عازما على قضائهما في هذا المصيف الهادئ برفقة صديق عزيز.

وما أن وطأت قدماي رصيف المحطة حتى شاهدته ينتظرني وكان قد سبقني الى سيغوفيا بايام قادما اليها من اشبيلية هاربا بدوره من حرها اللاهب.

وكان صديقي من العرب الذين آثروا منذ أن وصلوا الى اسبانيا ، قبل أكثر من عقد من الزمان ، العمل بالتجارة، بدلا من مضيعة الوقت في الوظائف، فأصبح من رجال الأعمال الموفقين في اشبيلية وامتلك من بين ما امتلك منزلا في سيغوفيا كنا نلتقي فيه في اجازات الصيف لقاءنا الوحيد على مدار السنة، ولم يكن ذلك مما يؤثر على صداقتنا بل كانت تزداد ثقة وتوطيدا عاما بعد عام. كنا قد تجاوزنا الثلاثين من العمر ومازلنا نحتفظ بعزوبيتنا وكانت لنا في الحياة فلسفة التقينا عليها فتفاهمنا، ملخصها «عش ودع غيرك يعيش».

وحال مغادرتنا للمحطة بسيارة صديقي يوسف انهال الواحد منا

على صاحبه بالأسئلة عن أحواله وأخباره رغم أننا كنا نتحدث عبر الهاتف لعدة مرات على مدار السنة. ورحنا نخطط للرحلات التي سنقوم بها الى الجبال والقرى المجاورة لسيغوفيا والتي اشتهرت بجمال طبيعتها ومطاعمها.

وصمم يوسف، كعادته كل صيف، على أن نتناول وجبة الغداء الأولى معا في مطعم كانديدو الذائع الصيت والذي أشتهر بالخنزير المشوي، ولكننا بالطبع، كعادتنا، لم نتناول ذلك الطبق، لا لأسباب دينية وحسب بل لأن أكثر من عشر سنين من الاقامة في اسبانيا لم تكن كافية لانتزاع ذرة واحدة من التقزز الشديد الذي كنا نشعر به لدى رؤية ذلك الحيوان القذر الذي هو أشبه مايكون بفأر كبير. ان أقبح ما يمكن أن تقع عليه العين في سيغوفيا هو منظر الخنازير الرضيعة مسلوخة ومعلقة من أفواهها في نوافذ المطاعم العريقة وقد شطرت الى نصفين وشويت.

ومن مائدتنا في ذلك المطعم الذي تطل نوافذه على الأقواس الرومانية البديعة لقناة المياه المعلقة، دار بيني وبين يوسف حديث حميم بدأناه كما هي العادة بين كل صديقين يلتقيان بعد طول انقطاع، تذاكر الماضي وأيامه الحلوة ثم الاعتذار عن قلة المكاتبة أو عدمها أو قلة المكالمات الهاتفية. فلما انتهينا من هاتين المرحلتين رحنا نخطط - كما كنا نفعل في السنوات الأخيرة وعلى نفس هذه المائدة - لكيفية قضاء الوقت خلال الأسبوعين المقبلين.

وبينما كنت استمع الى يوسف كنت افكر، وعيناي عبر النافذة لا تتحولان عن المبنى الروماني الشاهق ذي الألفي سنة، في سرعة

الزمان التي تجعل من السنة، بساعاتها وايامها وشهورها، مجرد ومضة خاطفة، فقد بدا لي في تلك اللحظات وكأن جلستي الأخيرة مع يوسف في العام الماضي في نفس ذلك المكان قد حدثت لتوها. ولكن ما قيمة السنة الواحدة وأنت تنظر الى ألفي سنة منتصبة أمام عينيك وتفكر بكل ما تعاقب من أجيال وأحداث تحت تلك الأقواس الحجرية الصامتة.

وما ان انتهينا من طعامنا حتى قلت ليوسف:

- والآن ما رأيك بتناول القهوة عند ميغيل؟.

وميغيل هذا رجل ظريف يمتلك مقهى اعتدنا على التردد عليه في اجازاتنا السابقة. وأعجب يوسف بالفكرة وهتف قائلا:

- تقصد مقهى «التنبل»؟. انها لفكرة ممتازة. مضى أسبوع كامل على وصولي الى سيغوفيا ولم أذهب بعد لزيارته لأنني أفضل أن نذهب اليه سوية كالعادة... وأنت سيد العارفين.

وجاءت عبارته الأخيرة التي أرفقها بغمزة من عينه اشارة الى ابنتي «التنبل» كما كنا نلقبه. فللرجل ابنتان غاية في الجمال لم تتجاوز الكبيرة منهما التاسعة عشرة، وكانت أختها تصغرها بسنة واحدة. والفتاتان تعملان في المقهى في خدمة الزبائن، بينما يتبادل والدهما أطراف الحديث مع زبائنه كأنه واحد منهم، موجها أوامره الى زوجته وابنتيه كي تسرعن في خدمة هذا وحمل المشروب لذاك. وكنا لذلك نسميه «بالتنبل» على سبيل الدعابة لا أكثر، فنحن لم نشاهده يوما يخدم رواد المقهى أو يعد لهم طعاما أو شرابا، وحجته في ذلك، كما قال لنا مرارا، أنه اشتغل منذ صباه وأنه وقد تجاوز الخمسين من العمر

حق له أن يكتفي بادارة المقهى. وكان يؤكد لنا ضاحكا كعادته أنه - وان بدا لا يشتغل- يقوم بالمهمة الأكثر تعقيدا في المقهى، ألا وهي ادارته وتسلية زبائنه الذين يداومون على زيارة مقهاه للإستمتاع بأحاديثه والضحك لنكاته.

والواقع ان الحقيقة لم تكن بعيدة عن منطقه ذاك، فالرجل عرفناه شعلة من الحياة والمرح والظرافة. بحيث لايمل مجلسه. ولم يكن لي أو ليوسف أدنى مطمع بابنتيه فلقد كان بيننا وبينهما فارق في السن لم نكن ننساه، وكان تلميح يوسف للفتاتين مجرد مزاح بريءُ فلم تكن بنا حاجة الى نساء في اجازتنا تلك ونحن الأعزبان اللذان ننشد البعد عنهن ولو لأيام قليلة.

وتوجهنا الى مقهى صديقنا ميغيل سيرا على الأقدام، وكلانا مستعد بل ومشتاق لاستقباله الحار والصاخب لنا كما يفعل في كل مرة نزوره فيها، فكأننا من صميم عائلته، ففي كل عودة لنا لمقهاه كان يشبعنا عناقا وتربيتاً على الاكتاف وصياحا يدعونا فيه الى تناول ما نشاء ثم يرفض أن يأخذ منا ولا بيزتا واحدة. وكان ينطلق ساردا علينا بالتفصيل كل ماشهدته سيغوفيا من حوادث وحكايات أثناء غيابنا عنها. وكان في انهماكه بالحديث لايدع لنا فرصة الكلام، وما كنا بحاجة اليه لأن حديثه كان ينقلنا من ضحك الى ضحك، فاذا استراح لحظة يرشف أثناءها من قدح الكونياك أو النبيذ الذي لم يكن يفارق يده كنا نهب لنسأله عن شخص ما أو عن مكان ما أو عن حادثة سمعنا بها فيكون هذا بابا جديدا لحديث منه بارع الظرافة نضحك له حتى نكاد نختنق وهو يشاركنا الضحك بسعادة بادية على وجهه

بينما لا يكف عن دعوتنا لشرب هذا وتناول ذاك من أطعمة .وكنا لا نشاركه الا بشرب المرطبات أو القهوة، فيفشل المرة تلو الأخرى باقناعنا بتناول قدح من النبيذ أو الكونياك أو الويسكي أو غيره من عشرات المشروبات التي تتكدس زجاجاتها على رفوف المقهى. وكان ازاء فشله المتكرر ذاك يقول متأففا ومداعبا:

- انكم يا معشر العرب تريدون أن تعيشوا ألف سنة. اشربوا فان الانسان منا لا بد وأنه ميت من مرض ما أو من شئ ما. انكما تضيعان عليكما فرصا لاتعوض من المتعة اذ ترفضان دعوتي لكما المرة تلو المرة. غيركما من الاسبان يتمنى أن أدعوه على كأس ويسكي واحد وأنتما هات يا شاي و هات يا قهوة. ان صداقتكما غير مكلفة أبدا، بل تكاد تكون مجانا.

كان يعتاد أن يقول لنا هذه العبارة وهو يغالب ضحكه، وكل من في القهوة مستمع لكلامه الذي كان ينطلق بصوت عال وصاخب، كعادة الاسبان في المقاهي.

وكان ميغيل اذا ما أنتهى من الحديث عن سيغوفيا وما حصل بها أثناء غيابنا شرع في سؤالنا عن أحوالنا وعن الحالة في مدريد واشبيلية، وعن البلاد العربية، حتى اذا ما بدأ أحدنا بالاجابة على اسئلته انطلق هو بنفسه ليجيب عليها. فكان يسارع الى صب جام غضبه على مدريد وشعبها وكثرة سياراتها وتلوث هوائها ثم على اشبيلية وحرها اللاهب وضيق شوارعها وكثرة لصوصها. ثم بعد ذلك كان يتناول الحالة في البلاد العربية، التي لم يزرها في حياته ويتطوع بدلا منا لندب حظ العرب بحكامهم وللتأكيد لنا، وكأنه لاعلم لنا بذلك، أن العرب

لولا حكامهم لهزموا اسرائيل منذ البداية. وكان ميغيل في ذروة حماسه العروبي يرفع عقيرته مؤكدا لنا ولكل رواد المقهى ولزوجته وابنتيه أن العرب هم أعظم شعوب العالم تاريخا وأنكدهم حاضرا، وأننا، أنا ويوسف، أعظم العرب نكدا لاصرارنا على عدم الشرب وعدم أكل شرائح فخذ الخنزير المقدد الذي كان يقدمه لنا كأفخر ما تنطوي عليه جدران مقهاه فنعتذر له مرددين دوما:

- ولكن يا ميغيل ألا تذكر أننا لا نأكل لحم الخنزير؟.

وتهب ابنتاه لتنبهاه من جديد، وسط اهتمام معظم الزبائن المحملقين بنا نحن العربيين الرافضين لطبق من شرائح فخذ الخنزير لا يرفضه اسباني واحد من جنوب البلاد الى شمالها مهما بلغ من البلاهة، الى أننا مسلمون والى أن المسلمين لا يأكلون لحم الخنزير.

كان حديث ميغيل لا يمل أبدا وكان منطقه المرح يتدفق بالكلمات الجريئة والجمل الفكاهية والتشبيهات المضحكة والتعابير الطريفة التي تزدحم بها اللغة الاسبانية بشكل لا تكاد تجاريها فيه لغة أخرى.

كنت ويوسف نحث الخطا نحو المقهى بشوق حقيقي لجلسة طويلة وممتعة مع ميغيل وعائلته . وقلت ليوسف أثناء اقترابنا من المحل ونحن نواصل تذكر أحاديث ميغيل:

- وعندما ينتهي من كلامه فانه يجفف العرق المتصبب من جبينه ويرشقنا بنظرة ذات معنى مشيرا برأسه نحو ابنتيه وهما لاتفارقان مصطبة المقهى تملآن اقداح الزبائن وتخدمانهم، بمساعدة الأم التي تلازم المطبخ طيلة نهارها ، بينما تستمعان معنا الى حديث أبيهما

وتشاركاننا الضحك وأحيانا الكلام، ثم يقول:

- هيه؟ ماذا تقولان؟ متى تتم الخطوبة يا عرب؟ أين ستجدان أفضل من كارمن ولوليتا أيها الأبلهين؟.

وتابع يوسف تذكر ذلك الموقف الذي تكرر عدة مرات فقال:

- وكانت ابنتاه تتورد خدودهما خجلا عند سماع هذه العبارات من ابيهما وتنظران الينا ضاحكتين بينما ننظر اليهما بدورنا ونقول صاخبين كأنما بصوت واحد:

- ألا ترى الشيب وقد بدأ يتسلل الى رؤوسنا يا ميغيل؟ ابحث لهن عن خطاب شباب. ثم ما الذي يضطرك الى تأبيد علاقتك برجلين نكدين لا يشربان الخمر ولا يأكلان لحم الخنزير؟.

وقلت ليوسف بلهجة جادة:

- الشيء الوحيد الذي يزعجني في هذا الرجل هو عدم غيرته على زوجته وابنتيه. انني ألاحظ بعض رواد المقهى كيف يتحرشون بهن وكيف يرمقونهن بوقاحة على مرأى منه.

- معك حق. أحيانا اعتقد أنني أغار عليهن أكثر من ميغيل، فلا تنسى أننا نعرف البنتين مذ كانتا صغيرتين في نحو الرابعة عشرة من العمر.

ووصلنا الى المقهى. وكم كان عجبنا كبيرا. فلم تكن هناك ثمة مقاعد ولا طاولات تحت السنديانتين الضخمتين اللتين تنتصبان أمام بابه، حيث كنا نعتاد الجلوس مع ميغيل وعائلته في ساعات الليل المتأخرة وقد خلا المقهى من الرواد ، ننعم بالنسمات العليلة ونطرب

لحفيف أوراق الشجرتين المتمايلة مع النسيم. ومما ازددنا له عجبا أن باب المقهى كان مغلقا والصمت مخيم على المكان كما لو كان مقبرة مهجورة. ونظر كل منا لصاحبه وقد انتابنا شعور كأنه خوف مفاجئ وضع نهاية لحديثنا المرح الذي بدأ بوصولي الى محطة القطار صباحا.

وسارع يوسف ليقول كأنما ليطرد هذا الشعور:

- لربما أصبح العم ميغيل يقلد مقاهي مدريد فيغلق محله يوما من أيام الاسبوع أو شهرا كاملا من أشهر الصيف.

ولكنني قلت له مشيرا الى باب المقهى:

- ان الغبار يغطي الباب والقفل، وهذا يعني أن المقهى مغلق منذ مدة طويلة.

واتكأت على جذع احدى السنديانتين وقد أسقط في يدي بينما اتكأ يوسف على جذع الشجرة الأخرى وقد تملكته الحيرة أيضا. كان شوقنا كبيرا للقيا ميغيل مما جعل شعورنا بالاحباط كبيرا أيضا في تلك اللحظات التي تملكتنا بها الحيرة وألجم لساننا العجب. وساد الصمت بيننا ونحن ننقل نظرنا ذات اليمين وذات الشمال لعلنا نعثر على شيء نهتدي به الى سر اقفال المقهى وخلوه من أصحابه.

كانت الشمس مازالت في عنفوانها في تلك الساعة من المساء لكن النسمات الرقيقة كانت تنساب تحت الشجرتين كعادتها فكأنها تقطن هناك دوما. وتكلم يوسف من جديد فقال:

- ان أردت الصراحة يا عماد فانني لا أخفي عليك قلقي على ميغيل وعائلته.

فنظرت اليه واجما لا أرد، فوجدته مطرقا الى الأرض يحرك حجرا صغيرا بمقدمة حذائه. وساد الصمت من جديد ونحن لا نتحرك من مكاننا ولا نفارقه كأننا ننتظر أن يحدث شيء ينتشلنا مما كنا فيه من حيرة.

ولكننا سرعان ما أدركنا أن بقاءنا هناك لا يفيد شيئا فغادرنا المكان صامتين وشرعنا عائدين من حيث أتينا. ولكن ما أن ابتعدنا بضعة أمتار حتى سمعنا صوتا ينادي:

- هيه... ماذا تريدون... أتريدون شيئا؟.

والتفتنا الى مصدر الصوت فوجدنا رجلا مسنا يقف على شرفة منزل فوق المقهى ويلوح لنا بيده، فصرخت به وقد انفرجت أساريرنا اذ تذكرنا عند رؤيته أن منزل عائلة ميغيل يوجد فوق المقهى:

- مساء الخير أيها الجد. أين أصحاب المقهى؟.

فرد الرجل بهدوء:

- انني لا أسمعك جيدا، لا داعي لهذا الضجيج. ماذا تريد؟

فضقت به ذرعا وسألته بجفاف:

- من أنت؟ نحن أصدقاء ميغيل.

فرد متأففا ومتهكما في آن واحد:

- أصدقاء ميغيل... أصدقاء ميغيل.

وصمت للحظات قبل أن يستطرد قائلا:

- انني أبوه... نعم أنا والد ميغيل.

وصمت الشيخ من جديد بينما تبادلت مع يوسف نظرة ارتياح

لعثورنا على من يكشف لنا عن السر الذي حيرنا. واذ بيوسف يقول لي وقد نفذ صبره من العجوز:

- أسنظل واقفين تحت الشرفة كالبلهاء؟ اذا انتظرنا حتى يخبرنا بما جرى فلربما يموت قبل أن نعرف منه شيئا.

وصرخ يوسف بالشيخ:

- نحن اصدقاؤه أيها الجد، ولم نره منذ العام الماضي. لقد حضرنا الى سيغوفيا لمقابلته فأين هو؟.

واذ بنا نرى امرأة تخرج الى الشرفة وتقول للشيخ كلاما لم نسمعه، فرد الشيخ عليها بكل هدوء بأننا نسأل عن ميغيل. فنظرت السيدة الينا مليا فعرفتها للتو وهتفت بيوسف:

- انها زوجة ميغيل، أليس كذلك؟ انها كايتانا.

وارتسمت ابتسامة على شفتي المرأة وقد عرفتنا وقالت ترحب بنا بصوت عال:

- اصعدا، اصعدا، ماذا تفعلان في الشارع؟.

ثم وجهت نظرة تأنيب للشيخ هازة رأسها علامة على استنكارها لتصرفه، فهتف بها الرجل:

- لا تنظري الي هكذا... كنت على وشك أن أدعوهما للصعود.

وصعدنا درجا ضيقا دون ان نتبادل كلمة واحدة، فقد كان تفكيرنا كله منصب على السر الكامن وراء اغلاق المحل. ووجدنا السيدة كايتانا زوجة ميغيل تنتظر على باب بيتها بالترحاب، وتعمدت عندما صافحتها أن أتعمق في عينيها مستعجلا استشفاف الحقيقة،

فوجدت فيهما حزناً لم أره من قبل، حزناً صارت له جذور وكأنما قد مرت عليه سنين مقيما في قلبها. وشعرت بيد قوية تعتصر قلبي وتلاشت ابتسامتي ونحن ندخل المنزل حيث كان الشيخ جالسا في غرفة استقبال متواضعة. وتبادلت نظرة مع يوسف فوجدته في حالة من التجهم وكأننا بصدد تقديم عزاء.

وما هي الا للحظات حتى كان أربعتنا جالسين نتبادل النظرات بصمت سرعان ما قطعته السيدة كايتانا متحدثة للشيخ:

- ألا تذكرهما أيها الجد ؟ لقد رأيتهما في المقهى عدة مرات.

وردد العجوز وهو لا يحول نظره عنا:

- الذاكرة لا تسعفني. ولكن مرحبا بكما.

وابتسمنا له شاكرين، ولكننا كنا على أحر من الجمر لمعرفة ماجرى لميغيل ومقهاه. ولم يطق يوسف صبرا فسأل المرأة بدون تردد:

- وميغيل ؟ أين هو؟.

ولاحظت اطراق الشيخ بينما سقطت الابتسامة التي كانت آثارها ما زالت عالقة بشفتي كايتانا وهي تقول بحزم:

- في السجن.

وبهرنا الجواب... بهرنا لقصره ولفحواه. ولم يكن من الصعب ادراك أن كايتانا كانت تثق بنا وكانت تريد أن تطلعنا على الحقيقة بدون تلفيق. والواقع أنني كنت أتوقع خبرا أكثر مرارة من الذي سمعته منها. وبدا لي أن يوسف قد تنبه من صدمة الخبر بسرعة اذ عاد فسألها بعد لحظة:

- وماذا فعل حتى يزج به في السجن؟ لقد عهدناه رجلا مسالما ومستقيما!.

وظلت المرأة صامتة ولاحظت أنها كانت تغالب دموعها فأوجست خيفة، وتذكرت ابنتيها فسألتها عنهما دون سابق تفكير، محاولا انقاذ الموقف، فإذ بي لم افعل سوى أن زدته سوءا حيث أجهشت المرأة بالبكاء، غير أنها ما لبثت أن تمالكت نفسها ومسحت دموعها. ونظرت الى يوسف فوجدته وقد امتقع وجهه وهو يرى بكاء كايتانا والتجهم الشديد الذي كسا وجه الشيخ وهو لا ينبس بكلمة.

- لقد قتل رجلا.

هكذا جاءنا جوابها اذ تمالكت نفسها لحظة. وشعرت بأحشائي تنقبض بشدة من هول ما سمعت، بينما همهم يوسف وهو لا يكاد يصدق ما سمع:

- تقولين أنه قتل رجلا؟. ميغيل يقتل رجلا؟ هذا غير معقول.

ولكنها هزت رأسها علامة الايجاب تأكيدا لكلامها واستطردت تقول:

- نعم ، ميغيل، انكما تعرفان كم كان مسالما ورحب الصدر، ولكنه قتل.

واذ بالشيخ يهتف دون سابق انذار:

- حكموا عليه بالسجن لخمسة عشر عاما، ولكنه فعل ما كان يتحتم عليه فعله.

ولاحظت احمرارا طرأ على عيني الشيخ وهو يقاوم دمعه أيضا.

وشعرت أننا دخلنا البيت لندس أصابعنا في جرح أهله. واجتاحتني رغبة بالنهوض ومغادرة المكان دون الانتظار لسماع أية كلمة أخرى.

ولكن... ماذا عن الفتاتين؟ وهممت بسؤال كايتانا عن ابنتيها، ولكن توارد الخواطر بيني وبين يوسف كان على أشده في تلك اللحظات، فاذ به يسبقني بسؤال الأم عن كارمن ولوليتا ، فأجابته السيدة وهي مازالت تقاوم دموعها وتتلعثم بالكلام:

- أرجوكما المعذرة. ولكنني مذ رأيتكما الآن وأنا لا أستطيع مقاومة التفكير بالحال السعيد الذي كانت عليه حياتنا خلال زيارتكما الأخيرة لنا في العام الماضي. كيف تتغير الحياة من جنة الى جحيم بهذه السهولة!!. كيف تتحول بطرفة عين من أحلا الحلو الى أمر المر... بلا تحذير ولا مقدمات... أيا ليت الحياة تعود الى الوراء سنة واحدة فقط.

وهنا أجهشت المرأة بالبكاء بحرقة من جديد اذ لم تعد قادرة على السيطرة على أعصابها. وتبادلت مع يوسف نظرة حيرة وجدتني أقول بعدها في محاولة للتهوين على تلك السيدة:

- الزمان ياسنيورا كايتانا لايعود الى الوراء ولا لحظة واحدة، فدعي الماضي للماضي وتأملي من المستقبل كل خير بارادة الله.

قلت ذلك دون اقتناع، واذ بالشيخ يهز رأسه بالنفي مسلطا علي نظرة معبرة عن يأسه قبل أن يقول بصوت متحشرج:

- الخير كله ذهب مع الماضي... الماضي هو الخير، أما المستقبل فليس فيه ما يرتجى.

فتصدى له يوسف قائلا له بنبرة صارمة:

- كل زمن مضى نعتبره أفضل من الزمن الحاضر ومن المستقبل. هذه طبيعة الانسان أيها الجد. فلربما نقاسي الأمرين حتى اذا ما مر زمن المقاساة وطوته السنون التفتنا اليه بشوق وحنين، كما لو كان أسعد أيامنا ولم نقدر سعادة يومنا الحاضر التي ما كنا لنحلم بها في زمن المعاناة . كل ذلك لا لشيء الا لأن سنوات الماضي أبعد عن موتنا من حاضرنا ولأن الماضي زمن طفولة أو شباب أو أحلام. لماذا تقول أن لا أمل في المستقبل؟ اتراك من يقرر مستقبل هذه العائلة أو مستقبل أي انسان آخر أو حتى مستقبلك أنت؟!. لا أحد منا أيها الجد يعرف ما تخبئه لنا الهنيهة المقبلة من خير أو شر.

كانت المرأة تستمع ليوسف وقد كفت عن البكاء تماما، وكان كلامه على مايبدو قد وقع عليها بردا وسلاما. ولاحظ يوسف ارتياحها لحديثه ولكنه كف عن الكلام اذ بدأ يفقد زمام أعصابه إزاء ذلك الشيخ المستسلم الذي كان اما صامتا كالقبر أو متحدثا ليوهن من عزيمة تلك المسكينة.

وساد صمت عميق بينما تعلقت نظرات كايتانا بيوسف كأنها تستحثه على متابعة الكلام . ولكن صاحبي ظل مطبق الفم، وكانت هذه طبيعته عندما تتوتر أعصابه ، وكنت أشعر أنه كان أيضا يتمنى مغادرة ذلك المنزل فورا ولكنني كنت موقنا في ذات الوقت أنه يتحرق شوقا لمعرفة ما حصل لهذه العائلة... لهؤلاء الأصدقاء.

وطرحت على المرأة سؤالا كنت متأكدا من أن يوسف كان يعلكه بعصبية في تلك اللحظات:

- سينيورا كايتانا. لماذا لا تسردي علينا القصة من أولها ؟ هذا اذا

كنت تعتبرينا من أصدقائك.

وردت كايتانا علي بهدوء بعد أن تمكنت تماما من حبس دموعها:

- بل أنتم من أصدقائنا القليلين. كانت لنا قائمة طويلة من الأصدقاء قبل أن يزج بزوجي في السجن . وكان بعضهم يبدو لنا الأخ الذي لم تلده أمنا. أما الآن، وقد أصبح ميغيل في السجن وأقفل المقهى فقد انفضوا عنا جميعا . كان ميغيل يفخر دائما بأنه محبوب كثيرا وأن له عشرات من الأصدقاء. كان الكثيرون منهم يظهرون له وجه الصداقة من أجل أن يدعوهم مجانا لتناول قدح من النبيذ.

وقاطعها يوسف قائلا بصوت خفيض كأنه يحدث نفسه:

- انه رجل طيب والناس يحبونه ويأنسون له بسرعة.

وفعلا بدأت كايتانا بسرد القصة التي أودت بزوجها الى السجن وأدت الى خراب بيتها السعيد فقالت:

- بدأ كل شيء بعد زيارتكما الأخيرة لسيغوفيا بأيام. كان الخريف على الأبواب ونسائم الليل قد صار فيها شيء من البرد مما جعل رواد المقهى يأوون الى بيوتهم في ساعة مبكرة الا شخصين أو ثلاثة. كانت الوقت ليلا وكنت أستعد مع زوجي لاقفال المقهى وجرد حسابات ذلك اليوم من العمل، بينما كانت البنتان تعدان العشاء في المطبخ وتتجاذبان اطراف الحديث بمرح كعهدكما بهما، فللاثنتين مرح أبيهما واقباله على الحياة. وفجأة إنشق ستار الخرز الذي يتدلى على باب المحل وأطل منه رجل لا يتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر وربما أقل من ذلك... أشقر طويل القامة أزرق العينين. وكما تعلمان ففي اسبانيا يضرب المثل في جمال الرجل الأشقر الطويل القامة

الأزرق العينين، ولعل السبب في ذلك أننا شعب معظمه أسمر قصير القامة نوعا وغامق العينين. وألقى الرجل علينا السلام بكل أدب، ولاحظنا فورا لكنته الأجنبية. وهممت باخبار الرجل بأن المقهى كان مغلقا اذ لم أرتح له منذ وقع نظري عليه، ولكن ميغيل الطيب استوقفني ورحب بالغريب وسأله ان كان يريد أن يتناول شيئا. وطلب الأشقر فنجان قهوة وقد بدأ على وجهه قلق شديد. وما أن قدم له ميغيل القهوة حتى بادره الرجل قائلا أنه قد وصل لتوه الى سيغوفيا بالقطار وأنه لم يجد في المحطة أية سيارة أجره وأن هاتف مقهى المحطة كان معطلا. ولم تكن المرة الأولى التي نستمع بها إلى مثل تلك الحالة، فنحن على بعد أمتار قليلة من محطة القطار. وسارع زوجي وقد فهم غرضه الى اعطائه دليل الهاتف فأخذ الرجل يقلب صفحاته بحماس باحثا عن ارقام الفنادق وهو لا يكف عن شكر ميغيل، فالمحطة كما تعلمان بعيدة عن وسط المدينة وكل ما يحيط بها هو ظلام دامس في مثل تلك الساعة من الليل . وشعرت أن زوجي كان يريد أن يعرض على الأشقر أن يؤجره غرفة في احدى الشقتين اللتين اشتريناهما في ذلك الصيف وحولناهما الى مايشبه النزل الصغير. وقاطعتها لأول مرة لمجرد أن أقول:

- لقد حدثنا ميغيل عن مشروعه ذاك ودعانا لزيارة الشقتين الواقعتين في المبنى الجديد الملاصق لهذا المبنى.

واستأنفت حديثها قائلة:

- أصبح تأجير غرف هاتين الشقتين مصدر رزقنا الوحيد طوال فترة اغلاق المقهى. كان ميغيل يعرف أنه من العسير العثور على غرفة

شاغرة في اي فندق من الفنادق التي تعلن عن نفسها في دليل الهاتف والتي لاتتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة. وفعلا، فما أن اتصل الغريب هاتفيا بفندقين حتى بدأ حماسه يتلاشى. ولما كان يهم بالاتصال بالفندق الثالث عرض عليه زوجي أن يؤجره احدى الغرف. وتم الاتفاق بسرعة وخرج ميغيل مع الغريب ليريه غرفته وأثناء غيابهما انصرف آخر زبائن المقهى بينما كانت كارمن ولوليتا قد انتهيتا من إعداد مائدة العشاء لنا. ومرت دقائق قليلة قبل أن يعود زوجي ومعه ذلك الرجل الذي بدا لنا أنه أصبح خلال تلك الدقائق من أعز أصدقائه. وانتحى بي ميغيل جانبا وقال لي في زهو وفرح أن الغرفة نالت اعجاب ذلك الأجنبي الذي كان من الواضح أنه ينتمي الى الطبقة الغنية. وأخبرني أن اسمه رينيه وأنه فرنسي وأنه سيتناول طعام العشاء معنا بعد أن الح عليه زوجي بالدعوة ، وهو ما أزعجني أيما ازعاج، ولكنني لم أفعل سوى أن ابتسمت للغريب مرحبة به.

وصمتت كايتانا لحظة انتهزها الشيخ ليردد بحنق وقد تفتحت جروحه باستماعه للرواية من جديد:

- الفرنسيون لاخير فيهم. انهم لا يحبون الاسبان اطلاقا ويعتقدون أنهم متفوقون علينا في كل شيء.

ولما لم نعلق بأية كلمة اذ كانت نظراتنا معلقة بكايتانا، استطردت المرأة تقول:

- لم أضحك في حياتي كما ضحكت أثناء ذلك العشاء. فلقد كان رينيه سريع النكتة وصاحب ظرافة فريدة اضافة الى أنه كان يكلمنا بلغة اسبانية ركيكة نوعا مما كان يثير ضحك البنتين عليه كلما

ارتكب خطأ ظريفا سواء بالمعاني أم بالنطق. والحق أنه سرعان ما استحوذ على اهتمامنا وعلى ثقة ميغيل الذي كان يستمع اليه بشغف وهو الذي لايستمع الى أحد في مثل هذه المجالس التي اعتاد فيها ألا يترك مجالا لحديث غيره. كان الفرنسي مثقفا واسع التجربة في الحياة، يعرف أوروبا بأسرها وبلدانا كثيرة في افريقيا وآسيا، مما جعلنا جميعا آذانا صاغية لحديثه الشيق ذاك ، لاسيما كارمن ولوليتا. وأذكر تماما أنه لم يعكر صفو تلك الجلسة سوى نقطة واحدة اصطدم بها ميغيل مع رينيه، وكاد الخلاف بينهما أن يحتد، فقد كانا شبه ثملين بعد كل ما تناولاه من نبيذ على العشاء،

وتدخل الشيخ من جديد مرددا وهو يهز رأسه:

- آه. أذكر ذلك. موضوع العرب .

وردت عليه كايتانا بحنان:

- ولكنك لم تكن معنا على العشاء أيها الجد. لقد كنت تغط بالنوم في تلك الساعة المتأخرة.

- نعم. نعم. ولكنك رويت لي ذلك عدة مرات.

وكنت ويوسف قد تشوقنا بشكل خاص لمعرفة نقطة الخلاف تلك بين ميغيل وضيفه والتي قال الشيخ أنها تتعلق بالعرب. فنظرت الى كايتانا استحثها على مواصلة الحديث فسارعت تقول:

- في سياق حديثه عن زياراته الى بلدان كثيرة أساء رينيه الحديث عن العرب ووصفهم بالهمجية وغير ذلك من الألفاظ المشينة. وواقع الأمر أن ميغيل تغاضى عن ذلك في أول الأمر، ولكن رينيه عاد يلح في استهزائه من العرب علّه ينتزع ضحكنا واعجابنا كما اعتاد منذ

بدء الجلسة، الا أننا جميعا بقينا واجمين مما أثار عجبه. واذ به يتحول عن منطق الهزل ليشتم العرب هكذا صراحة وبشكل جدي. وهنا سأله ميغيل باحتداد عن سبب كراهيته للعرب، فحار الفرنسي جوابا واكتفى بتكرار نعوته القبيحة للعرب حتى قال له ميغيل بشيء من الحنق ولكن دون أن يفقد أعصابه:

- «انكم يا معشر الفرنسيين تكرهون نصف العالم وتحتقرون النصف الآخر. أنا سأقول لك لماذا تكرهون العرب، لأنهم هزموكم في الجزائر وأخرجوكم من ديارهم بعد أن استعمرتموها لأكثر من مئة عام، كما أخرجوكم من المغرب ومن تونس و من بلدان عربية أخرى، ولم يمض على كل هذا سوى سنوات قليلة يارينيه. هذا أحد الاسباب لكراهيتك لهم. أتريد مني أن أسرد لك المزيد منها؟».

كانت كايتانا تتكلم مقلدة طريقة كلام زوجها حتى أضفت على السؤال الأخير شيئا من الحدة والغضب. ولم تتوقف بل تابعت كلامها قائلة:

- ودهش رينيه أشد الدهشة وهو يستمع الى ميغيل وسأله وقد لاحظ غضبه عن سر معرفته تلك بهذه الناحية من تاريخ فرنسا . فرد عليه ميغيل بأنها فصول من تاريخ العرب أولا قبل أن تكون من تاريخ فرنسا، وأنه عاصرها ، فلا غرابة في ان يذكرها. وأضاف زوجي بعد ذلك عبارة لا أنساها بدا أنها أزعجت رينيه وجرحت غروره:

- «ألا إعلم يا ضيفنا أنك لست الوحيد هنا الذي يعرف العالم. والفارق بيننا وبينك أنك مضطر للسفر من بلد لآخر للتعرف على الناس أما نحن هنا، في هذه المدينة التاريخية وفي هذا المقهى، فان

العالم ببلدانه كلها يأتينا زائرا، كما اتيتنا أنت الفرنسي وغيرك من الفرنسيين، ولم نزر نحن فرنسا قط. فرنسا هي التي تزورنا. وكذلك العرب، ولي منهم أصدقاء أعتز بهم ويحبونني ويحبون عائلتي هذه ولا أقبل منك أن تشتم أصدقائي».

ولم يطق يوسف سوى أن هتف متأثرا:

- ميغيل رجل نبيل. نعم الصديق ميغيل .

ورد عليه الشيخ:

- قلت لكم أن الفرنسيين لاخير فيهم. انهم لا يحبون الاسبان اطلاقا. لاتنسوا أن نابليون احتلنا لزمن طويل . ولكننا طردناه شر طرده.

قال العجوز كلماته الأخيره هذه بحماس شديد ملوحا بقبضته في الهواء.

وابتسمت كايتانا لقول حماها وهتفت به بصوت عال كعادتها كلما كلمته لضعف سمعه:

- لقد حدث ذلك قبل ميلادك بنحو مئة عام أيها الجد.

ثم استطردت تقول:

- ولكن لنعد الى تلك الليلة لقد أدى ذلك النقاش بين ميغيل والفرنسي الى فتور واضح في الحديث الذي دار بيننا وبين رينيه بعد ذلك والذي لم يستمر سوى لدقائق نهض بعضها الأشقر مستأذنا وانصرف الى غرفته . وكان لذلك العشاء أثر لم ألاحظه حتى أشرفت السهرة على نهايتها. فان رينيه الجميل الطلعة.. الطويل القامة..

صاحب النكتة.. الرجل المجرب الذي يكاد يعرف الدنيا بأسرها... المثقف الذي يتكلم ثلاث لغات... والغني صاحب الثروة، هذا الرجل لم يكن قد استحوذ على اهتمامنا جميعا وحسب، بل كان أيضا قد بهر كارمن ولوليتا وسحرهما بشخصيته. وكيف لا وهما معتادتين على معاملة نوع من الناس ليس في حياتهم ما يثير أو يدهش. أضف الى ذلك أنهما كانتا في سن خطرة كل أمر مثير يتبدى فيها رائعا وكل مدهش ممتازا، هكذا دون تمحيص ولا تحليل . انها سن الحب الذي يكون القلب فيه مفتوحا على مصراعيه لأول طارق كائنا من كان. ولقد أوجست خيفة وتشاءمت اذ لاحظت نظرات ابنتي معلقة برينيه. وتلاشى مرحي في تلك الليلة قبل أن ينشب النقاش بين ميغيل ورينيه اذ لمحته يوجه نظرات لا تخلو من معاني لابنتي الكبيرة كارمن فأصبحت على أحر من الجمر مستعجلة نهاية ذلك العشاء المنحوس الذي كان بداية كل مصائبنا اللاحقة.

وانصرف رينيه الى غرفته بعد أن حيانا واحدا واحدا مستخدما مرحه المعتاد كي يؤكد أن خلافه الأخير مع ميغيل لم يخلف في نفسه أي أثر سيء. وأراد ميغيل أن يرافق رينيه حتى غرفته ليبرهن له بدوره على أنه لم يكن مستاءا منه وأن كل شيء يسير على ما يرام . لكن الفرنسي أصر على أن يبقى زوجي معنا، وتصافح الرجلان مجددا وابتسامة عريضة تعلو شفتي كل منهما. وما أن خرج الأشقر من باب المقهى حتى وجدت ميغيل ينظر الي بصمت وفي عينيه ارتسمت علامة سؤال كبيرة لم أدر كنهها ولكنها أثارت في نفسي هواجس جمة. ونظرت الى كارمن ولوليتا فوجدتهما منهمكتين في تنظيف المائدة والمطبخ وقد تلاشت فرحتهما وكفا عن الضحك.

في صباح اليوم التالي فتحنا المقهى الساعة السابعة كالعادة، وأذكر أن الجو كان رائعا والسماء زرقاء صافية حتى بدا لي وكأن هواجس الليلة السابقة قد مضت عليها عهود طويله، فلم يكن لها في نفسي في تلك اللحظات من أثر ولم ألاحظ على زوجي أدنى انزعاج فقد كان مقبلا على الصباح بنشاط ومرح كما عرفته دائما. أما البنتان فكانتا بعد في الفراش، كعادتهما في تلك الساعة من أيام الصيف.

ومضى الصباح هادئا وديعا حتى ساعة الضحى، فاذا برينيه يدخل المقهى مشرق الوجه، يحيينا بأعلى صوته، فاستقبلناه بدورنا أحسن استقبال. وتناول الأشقر طعام الفطور برفقة ميغيل ودار بينهما حديث علا فيه ضحكهما من جديد. ولا أدري لماذا كنا نعامل رينيه معاملة تختلف عن معاملتنا لباقي الزبائن، فمنذ اللحظة الأولى عامله زوجي معاملة الصديق، ولعل ذلك يعود الى نزعته الطبيعية في اغداق الصداقة على غير الاسبان لمشاركته لهم مشاعر البعد عن أوطانهم وعائلاتهم ، كما قال لي ذات مرة.

وما أن انتهيا من تناول الفطور حتى سمعت ميغيل يقول لجليسه بصوت عال مشيرا الي:

- من الأفضل أن تستشير أمها، فمن ناحيتي لا مانع.

واذ بي والأشقر يتجه نحوي قائلا لي بثقة كاملة وكأنني من أعز أقربائه.

- سينيورا كايتنا، أريد أن أتجول في سيغوفيا لأتعرف جيدا على هذه المدينة الشهيرة. ولكنني لا أود أن أفعل ذلك لوحدي وقد أصبح لي بكم أصدقاء طيبون في هذا البلد. فهل تسمحي للآنسة كارمن

بمرافقتي لتريني مدينتها؟.

وتبادلت نظرة خاطفة مع زوجي لم ألاحظ بها على وجهه أي علامة انزعاج ، ولم أجد وسيلة ولا جرأة لرفض طلبه، وكنت أود أن أرفضه ، ولكن أنى لي أن أقابل كل ذلك اللطف بالرفض!. ولم أجد مفرا من السماح له باصطحاب كارمن، ولم أخف علامات الامتعاض التي كانت بادية على وجهي بصراحة، ولكنه تجاهلها. وأخبرته أن كارمن لن تتأخر بالنزول الى المقهى فأجاب بأنه ذاهب لاستئجار سيارة للتجول بالمدينة وما حولها من قرى وأنه لن يتأخر بالعودة لمرافقة كارمن.

وهنا هب الشيخ كما لو استيقظ فزعا من نوم عميق وقال هاتفا بصوته الأجش:

- هنا كانت الغلطة. غلطتك وغلطة ابني ميغيل. فان كان هو أحمق فكيف تتركين أنت ابنتك ترافق غريبا في سيارة؟ . هكذا بدأت الفاجعة التي دمرت عائلتنا.

وصمتت كايتانا ازاء فورة الشيخ وقد نكست رأسها اذ تملكها حزن عميق وهي تقترب بروايتها الى اللحظة الحاسمة. ووجدتني ازاء حزنها أتوجه للشيخ قائلا له بهدوء:

- هذا كلام سهل أن يقال الآن أيها الجد، ولكن من عنده علم الغيب من بين البشر؟.

ورجوت كايتانا أن تواصل حديثها بينما رأيت يوسف واجما لايرمش له جفن بانتظار معرفة بقية ما حدث.

واستأنفت المرأة حديثها فقالت:

- حال انصراف الأشقر صعدت الى هنا وأخبرت كارمن بأن الفرنسي يريد أن ترافقه في جولته في أنحاء سيغوفيا، فرأيت في عينيها فرحة عارمة حاولت دون جدوى أن تخفيها عني. وكما تفعل أي أم في مثل هذا الموقف أسديت لها النصائح وحذرتها منه حيث لم نكن نعرف عنه الا القليل، هذا اضافة الى أنه يكاد يضاعفها عمرا . وواقع الأمر انه لو كان شابا صغير السن مثلها لما تركناها تذهب معه، فان الرجل الناضج يوحي بثقة وحكمة كثيرا ما تكونا مجرد سراب. وبعد قليل عاد الرجل وطلب منا بطريقة ظريفة وصاخبه أن نخرج لنلقي نظرة على السيارة التي استأجرها. وخرجت مع زوجي وكارمن الى باب المقهى، بل ولحق بنا بعض الزبائن من أصدقائنا، فاذ برينيه قد استأجر سيارة فخمة، أبدينا اعجابنا بها ، فقال بزهو على مسمع من الزبائن أن جمال كارمن يستحق سيارة أفخم من تلك بكثير. ولكننا لم ننزعج لتلميحاته تلك لأنها صدرت عنه بلهجة بدت طبيعية وبريئة. وكنت ألاحظ أن ابنتي كارمن كانت في تلك اللحظات في غاية السعادة، كطفلة تلقت لتوها لعبة جديدة.

وأذكر أن ابنتي الحبيبة كارمن قبلتني قبلة سريعة كعادتها ثم قبلت والدها واختها لوليتا قبل أن تصعد الى السيارة والسعادة تلتمع في عينيها ببراءة الأطفال. كانت في الثامنة عشر من عمرها آنذاك. ولم استطع مقاومة سؤال ألح علي بقوة في تلك اللحظة وحاولت طرده من ذهني دون جدوى : «اترى وقعت كارمن في حب رينيه!! يا الهي!». لم أكن أريد مجرد التفكير باحتمال مثل هذا ... فالحب في مثل سنها أعمى وأهوج وتخشى عواقبه. وكنت أعلم علم اليقين أن ذلك الرجل كان من نوع الرجال الذين تقع الفتيات في حبهم

بسهولة... رجل وسيم ومثقف وغني... وأشياء أخرى لم نكن نعرفها عنه بعد... وشعرت بقلبي يهوي الى قدمي... ترى أية أشياء تلك التي لم نكن نعرفها عنه؟... ونظرت الى ابنتي وهي جالسة في المقعد الأمامي من السيارة وشعرها الطويل الأسود مسدول على ظهرها. وشعرت برغبة جامحة ومفاجئة بسؤال ذلك الغريب عن كل ما كنا نجهله عنه... ولكن !!.

وتوقفت كايتانا عن الكلام للحظات وهي في أوج انفعالها، وقد علت أنفاسها وضجت في صدرها كما لو كانت تمر بكابوس مخيف. ثم لم تلبث ان واصلت حديثها ازاء صمتنا المطبق، فقالت مطرقة الى الأرض كسيرة الجناح:

- وانطلقت السيارة انطلاقا عنيفا أعطاني للتو معلومة جديدة عن نوع الرجل القابع خلف مقودها، فتسارعت نبضات قلبي وكدت أطلق ساقي للريح لألحق بها... لألحق بابنتي الحبيبة. ولكنني لم أبد حراكا وظللت أتأمل السيارة حتى اختفت عن نظري.

وصمتت المرأة من جديد. كان من الواضح أنها كانت تغالب دمعا سخينا تود أن تذرفه لترتاح قليلا ولكن وجودنا كان يدفعها لمزيد من المقاومة. أما الشيخ فكان مطرقا بدوره الى الأرض لا يفتأ يهز رأسه أسفا وحسره ازاء تلك الذكريات المرة.

ورفعت كايتانا رأسها ونظرت الينا مليا بعينين محمرتين قبل أن تقول برباطة جأش تدربت عليها طيلة السنة التي مرت على ذلك الحدث:

- أتعلمان ياسنيور يوسف ويا سنيور عماد؟. لعلكما لن تصدقا ما

سأقوله لكما ، فهو شيء يصعب تصديقه، لكنه هو الحقيقة المرة بعينها. كانت تلك آخر مرة رأيت فيها ابنتي كارمن... لم أرها بعد ذلك أبدا... ولا أعتقد أنني سأراها.

وهتف يوسف من فرط المفاجأة:

- كيف؟! غير معقول! .

ولزمت بدوري الصمت عل كايتانا تقدم لنا تفسيرا لما حصل. وبالفعل تابعت المرأة كلامها وقد بدأت الدموع تلتمع في عينيها:

- هذا ما حصل وبكل بساطة. عندما استدرت مع ميغيل لدخول المقهى بعد انصراف رينيه وكارمن وجدنا لوليتا واقفة بالباب شاردة النظر، فصرخ بها ميغيل مرحا:

- ما بك يا لوليتا؟ لا تحزني ياصغيرتي فانها أكبر منك بسنة كاملة... ولعلك بعد سنة تجدين لك خطيبا أفضل من هذا.

وما زال صوته يرن في أذني مرددا تلك الكلمات بدعابة ومرح . ولكن من يدري لعله لم يكن يشعر بأي سعادة في تلك اللحظات فكان يبدي مرحه ذاك ليزيح عني بعض ما كان يعتريني من قلق، بيد إنني لم أتوصل قط لمعرفة شعوره الحقيقي في تلك الساعة من الصباح. ولما رأتنا لوليتا نقترب منها استدارت ودخلت المقهى دون أدنى تعليق على مزاح والدها مما أثار في نفسي ألف علامة استفهام جديدة، وضاعف سهوم وجهها من قلقي فدلفت الى المقهى لأعد الدقائق بانتظار عودة كارمن ولأتابع بكل جوارحي عقربي الساعة في دورانهما.

ولكن كارمن لم تعد. واخذ قلقنا نحن الثلاثة يطفو على سطح

وجوهنا عندما مالت الشمس للمغيب، فسيغوفيا بلدة صغيرة لا تتطلب زيارة معالمها وما حولها من قرى كل تلك الساعات التي كانت قد مرت منذ خروجها مع الغريب صباحا. وأخذ ميغيل يذرع المقهى جيئة وذهابا ، فلا يكاد يبتعد عن الباب الخارجي حتى يعود اليه ويجوس الشارع بنظره عله يرى سيارة رينيه. ولاحظ بعض زبائننا قلقنا ذاك وسألنا أكثر من واحد منهم عن كارمن، فلم يكن غيابها عن المقهى عادياً في تلك الساعة من المساء، وصمت زبون شهد في الصباح مغادرتها مع الفرنسي، وشكرته بنظراتي على صمته ذاك بينما كنت أقول للسائلين أن كارمن ذهبت لزيارة صديقة لها متوعكة صحيا. وبدت لوليتا أشدنا قلقا وتوترا، وكانت قد قضت النهار في صمت وانهماك بأي عمل كنت أوصيها به أو كانت تختلقه هي بنفسها.

وحل الليل ونحن لانكاد نصدق. أقبل الليل ولم تعد كارمن. لربما كانت تلك أول مرة يخلو فيها البيت من كارمن بعد حلول الليل. وكان ذلك بحد ذاته أمرا خطيرا بالنسبة لنا. ولم نكن نعلم في تلك اللحظات أننا كنا على عتبة أيام وشهور مشؤومة كابدنا شؤمها فيما بعد دقيقة بدقيقة.

ورغم قلقنا الشديد، كان لايزال لدى كل منا شعاع أمل يتمسك به، وكنا جميعا على يقين بأن كارمن السمراء النقية.. الوردة اليانعة، ستظهر بالباب بين لحظة وأخرى. لكن شيئا من ذلك لم يحصل. ولما لم يعد لدينا أدنى شك بأن أمرا غير عادي قد حصل لكارمن، وكانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلا عندما انطلقت مع زوجي الى

سأقوله لكما ، فهو شيء يصعب تصديقه، لكنه هو الحقيقة المرة بعينها. كانت تلك آخر مرة رأيت فيها ابنتي كارمن... لم أرها بعد ذلك أبدا... ولا أعتقد أنني سأراها.

وهتف يوسف من فرط المفاجأة:

- كيف؟! غير معقول! .

ولزمت بدوري الصمت عل كايتانا تقدم لنا تفسيرا لما حصل. وبالفعل تابعت المرأة كلامها وقد بدأت الدموع تلتمع في عينيها:

- هذا ما حصل وبكل بساطة. عندما استدرت مع ميغيل لدخول المقهى بعد انصراف ريتيه وكارمن وجدنا لوليتا واقفة بالباب شاردة النظر، فصرخ بها ميغيل مرحا:

- ما بك يا لوليتا؟ لا تحزني ياصغيرتي فانها أكبر منك بسنة كاملة... ولعلك بعد سنة تجدين لك خطيبا أفضل من هذا.

وما زال صوته يرن في أذني مرددا تلك الكلمات بدعابة ومرح . ولكن من يدري لعله لم يكن يشعر بأي سعادة في تلك اللحظات فكان يبدي مرحه ذاك ليزيح عني بعض ما كان يعتريني من قلق، بيد إنني لم أتوصل قط لمعرفة شعوره الحقيقي في تلك الساعة من الصباح. ولما رأتنا لوليتا نقترب منها استدارت ودخلت المقهى دون أدنى تعليق على مزاح والدها مما أثار في نفسي ألف علامة استفهام جديدة، وضاعف سهوم وجهها من قلقي فدلفت الى المقهى لأعد الدقائق بانتظار عودة كارمن ولأتابع بكل جوارحي عقربي الساعة في دورانهما.

ولكن كارمن لم تعد. واخذ قلقنا نحن الثلاثة يطفو على سطح

وجوهنا عندما مالت الشمس للمغيب، فسيغوفيا بلدة صغيرة لا تتطلب زيارة معالمها وما حولها من قرى كل تلك الساعات التي كانت قد مرت منذ خروجها مع الغريب صباحا. وأخذ ميغيل يذرع المقهى جيئة وذهابا ، فلا يكاد يبتعد عن الباب الخارجي حتى يعود اليه ويجوس الشارع بنظره علّه يرى سيارة رينيه. ولاحظ بعض زبائننا قلقنا ذاك وسألنا أكثر من واحد منهم عن كارمن، فلم يكن غيابها عن المقهى عادياً في تلك الساعة من المساء، وصمت زبون شهد في الصباح مغادرتها مع الفرنسي، وشكرته بنظراتي على صمته ذاك بينما كنت أقول للسائلين أن كارمن ذهبت لزيارة صديقة لها متوعكة صحيا. وبدت لوليتا أشدنا قلقا وتوترا، وكانت قد قضت النهار في صمت وانهماك بأي عمل كنت أوصيها به أو كانت تختلقه هي بنفسها.

وحل الليل ونحن لانكاد نصدق. أقبل الليل ولم تعد كارمن. لربما كانت تلك أول مرة يخلو فيها البيت من كارمن بعد حلول الليل. وكان ذلك بحد ذاته أمرا خطيرا بالنسبة لنا. ولم نكن نعلم في تلك اللحظات أننا كنا على عتبة أيام وشهور مشؤومة كابدنا شؤمها فيما بعد دقيقة بدقيقة.

ورغم قلقنا الشديد، كان لايزال لدى كل منا شعاع أمل يتمسك به، وكنا جميعا على يقين بأن كارمن السمراء النقية.. الوردة اليانعة، ستظهر بالباب بين لحظة وأخرى. لكن شيئا من ذلك لم يحصل. ولما لم يعد لدينا أدنى شك بأن أمرا غير عادي قد حصل لكارمن، وكانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلا عندما انطلقت مع زوجي الى

مخفر الشرطة وأخبرنا الضابط هناك عما حصل وكلانا يرتجف من شدة التوتر. وبعد أن أجبنا على اسئلة الضابط، طلب منا أن نعود الى البيت وأن نترك الموضوع في يده، وهكذا فعلنا.

وبعد نحو ثلاث ساعات جاء الضابط الى البيت وطلب منا أن نريه غرفة رينيه ففتحنا له باب الغرفة ودخلنا معه، وكم كانت مفاجأتنا كبيرة اذ لم نعثر بها على شيء من متاع رينيه وهو ما فجر مخاوفنا تفجيرا فأجهشت أبكي اذ أدركت كل شيء في غمضة عين. كان ذلك الوغد قد حمل معه كل متاعه صباحا، أي أنه خطط لكل شيء مسبقا. وطلب منا الضابط أن نعطيه أوصاف رينيه وصورة لكارمن ثم انصرف على أن يتصل بنا حال توفر أية معلومات عنهما.

ولم يغمض لنا جفن طيلة الليل. وحاول ميغيل أن يعرف من لوليتا ان كانت على علم بأي شيء يساعدنا في العثور على أختها، ولكنها ظلت صامتة وواجمة لا ترد. وفي الصباح الباكر جاء الضابط وطلب من لوليتا أن تصطحبه الى المخفر. ولم تمض ساعة حتى عادت لوليتا وأخبرتنا أن الضابط يطلب مقابلتنا. وفي المخفر ، وبعد أن حاول الضابط أن يهدأ من روعنا فاجأنا بقوله أن كارمن قد فرت مع الفرنسي بمحض ارادتها وأنها ستتصل بنا بعد زواجها به. وكانت صدمتنا مفجعة. وسألنا الضابط، ونحن لا نصدق ما نسمعه منه، كيف يمكن ان يكون الفرنسي وابنتنا قد توصلا لمثل هذا القرار ولم يكن قد مضى على لقائهما سوى ساعات معدودة، وهل من المعقول أن يكون الحب قد اشتعل بقلبيهما وبهذه القوة من أول لقاء؟! وكيف توصلا الى ذلك الاتفاق وهما لم يلتقيا الا على مائدة العشاء ولم

يتبادلا سوى بضع كلمات؟!. فأجابنا الضابط بأن لوليتا كانت على علم بكل شيء وأنها قد أخبرته عندما استجوبها بأن رينيه قد مرر لكارمن خلسة أثناء العشاء ورقة طلب بها أن تقابله عند باب العمارة الملاصقة للمقهى بعد أن ننام جميعا. واستجابت كارمن لطلبه، اذ كانت قد وقعت في حبه بجنون وقال لنا الضابط أنه من المؤكد أن كارمن اعتقدت بأنه لا ضير في لقياه على باب المبنى، وأنها ستكون مقابلة بريئة ومغامرة عابرة. وأخبرت كارمن أختها بأنها ستقابل رينيه وظلت الصغيرة تنتظرها على أحر من الجمر حتى عادت قبيل انبلاج الصبح لتخبر لوليتا بأنها عازمة على الفرار مع الفرنسي. وحاولت لوليتا بكل قواها أن تثنيها عن عزمها دونما فائدة وأخبرتها كارمن أن رينيه قد أصبح كل شيء في حياتها، وانها قضت الليلة معه في غرفته وأنه جعل منها امرأة وأنها لاتطيق فراقه لحظة واحدة . وقالت كارمن لأختها أنها تفضل أن تختفي من حياتنا لفترة قصيرة ريثما تعود المياه الى مجاريها بزواجها من رينيه .

صمتت المرأة للحظات اذ وصلت االى هذا الحد من روايتها، لكن أحدا منا لم ينبس بكلمة اذ أصبحنا نعي فداحة مصاب هذه العائلة ، فتابعت حديثها تقول بصوتها الحزين الذي ألفناه مذ دخلنا بيتها:

- خرجت مع زوجي من المخفر واجمين، وظللنا صامتين حتى وصلنا المقهى. وهناك أخبر زوجي الزبائن بأنه سيغلق المحل ورجاهم الخروج فغادروه جميعا دون احتجاج ودون أسئلة اذ كان بعضهم يشعر بأن مشكلتنا كبيرة فلم يسبق لميغيل أبدا أن أقدم على طرد الزبائن. وحال خروجهم واغلاق أبواب المحل أخذ زوجي بيد لوليتا

وصعد بها الى هنا وضربها ضربا مبرحا حتى سمع صراخها أهل الحي، ولولا أنني انتشلتها من بين يديه لقتلها ضربا . وأجهش ميغيل بالبكاء بعد ذلك كطفل صغير فما رأيته في حياتي يبكي بتلك المرارة والحرقة. وكان في بكائه لا يكف عن القاء اللوم على نفسه مرددا أن لوليتا لاشأن لها بما حصل وأنه هو المذنب الوحيد. وفي الوقت الذي كنت فيه بأمس الحاجة لمن يواسيني كنت أحاول مواساة زوجي فلما فشلت في ذلك أجهشت باكية معه ومع لوليتا.

وفي مساء ذلك اليوم جاءنا الضابط بنتائج جديدة توصل اليها في تحرياته. كان لها علينا وقع الصاعقة، قال الضابط أن رينيه هو اسم مستعار وأن ذلك كان واحدا من أسماء كثيرة استعملها الرجل، وأنه في الواقع مجرم يعمل في خدمة عصابة دولية للاتجار بالرقيق الأبيض وانه مطلوب من الشرطة في عدة بلدان أوروبية. وأضاف على مسامعنا التي لم تكن تطيق المزيد من تلك الحقائق الفظيعة أن لديه معلومات تؤكد أن ذلك المجرم وكارمن قد اجتازا الحدود الى فرنسا وأن الشرطة هناك قد نشطت في البحث عنهما.

وقبل أن يعود الضابط من حيث أتى حاول أن يخفف عنا مصابنا فقال لنا بلهجة المواسي:

- ليست كارمن أول ضحية تقع في براثن هذا المجرم. ان سجله حافل بمثل هذه الجرائم.

وما أن انصرف الضابط حتى هب زوجي طالباً مني أن أعد له فورا حقيبة سفر. كان قد عقد العزم على الرحيل إلى فرنسا للبحث عن كارمن لينقذها قبل فوات الأوان ، ولم يكن هناك من سبيل لثنيه

عن عزمه رغم أنه كان يعرف مثلي أن مهمته شبه مستحيلة. وكنت أرى في عينيه نية أخرى لم أجرؤ حتى على سؤاله عنها خوفا من سماع الجواب المحتوم. لم يكن زوجي عازما على انقاذ ابنتنا وحسب، بل كانت لديه أيضا رغبة جامحة بالانتقام من رينيه. وفي اليوم التالي سافر ميغيل وأنا لا أدري ان كان علي أن أمنعه أم أشجعه على السفر، فلقد كنت أريد استرداد ابنتي بأي ثمن، ولكنني كنت أخاف من عواقب تلك المطاردة.

وهنا لم يتمالك يوسف سوى أن يسأل كايتانا بلهفة:

- وهل عثر على الوغد؟.

فهب الشيخ يجيبه مستخدما مقولة اسبانية شعبية:

- بل كان من الأسهل العثور على ابرة في مخزن قش.

وقالت كايتانا ترد على يوسف وتستأنف رواية ما حدث وصوتها يزداد حشرجة واختناقا:

- كلا. رغم أنه مكث في فرنسا ثلاثة شهور كاملة، ورغم أن عددا من معارفه الاسبان ساعدوه في البحث عن رينيه وكارمن، ولكن دون جدوى. وكان يزودنا بأخباره أولا بأول . وقبيل عودته الى سيغوفيا تسلمت منه رسالة مع صديق قادم من فرنسا. كانت تلك رسالة مشؤومة طلب مني ميغيل فيها أن لا أريها لابنتنا لوليتا خوفا عليها من الاصابة بانهيار نفسي إن هي قرأتها. في تلك الرسالة أخبرني ميغيل أنه تأكد من أن كارمن تعمل في أحد المواخير القذرة في باريس وأنه لم يستطع اطلاقا الوصول اليها لعلمها بأنه كان يبحث عنها. وطلب مني زوجي في رسالته أن أحاول كل جهدي نسيان كارمن

وكأنها لم توجد قط، مهما كلفني ذلك من ألم. وقال لي أيضا أن اللعين رينيه معروف في الأوساط المنحطة، ولكنه لم يعثر له على أثر.

ولكن تحريات زوجي في باريس لم تذهب سدى، ويا ليتها ذهبت سدى، فقد علم هناك أن رينيه موجود في البرتغال وأنه سيسافر الى اسبانيا من جديد.

أتعلمان سبب زيارته الجديدة لاسبانيا ؟ لقد كان يبحث عن فريسة جديدة لمواخيره الفرنسية. أو تعلمان على من وقع اختياره هذه المرة؟.

وصمتت كايتانا وهي تنظر الينا ونحن في حالة من الذهول ازاء كل ما سمعناه. ولكن ذهولنا أصبح أضعافاً مضاعفة عندما قالت المرأة، ازاء صمتنا:

- لوليتا. نعم، عاد الوغد ليفعل بلوليتا ما فعله بكارمن.

وتبادلت مع يوسف نظرة استنكار وقد تملكتنا دهشة شديدة. وردد يوسف بغضب:

- كيف يمكن أن يوجد على وجه الأرض بشر بهذه الوقاحة!!.

وتابعت كايتانا تقول وقد اكتسب حديثها سرعة وصوتها علوا في انعكاس جلي لتوتر أعصابها وهي تستذكر تلك اللحظات التعسة من حياتها:

- نعم. لقد عاد رينيه ليقضي أيضا على ابنتي لوليتا التي لم يعد لي غيرها في هذه الحياة. كان يعلم جيدا أن كلتا البنتين، كارمن ولوليتا، قد فتنتا بشخصيته الزائفة. فبعد يومين فقط من تسلمي تلك الرسالة

من ميغيل لاحظت تجهما مفاجئا حل بوجه لوليتا وسيطر على تقاسيمه. وأثار تجهمها قلقا عميقا بي. ولا أخفيكما أنني كنت أشك طيلة غياب أبيها بأنها كانت على اتصال باختها، بطريقة ما، ولكن ثبت لي بعد ذلك أن اعتقادي ذاك لم يكن في محله، وأبت البنت باديء الأمر أن تخبرنني عن سبب ذلك التجهم الذي طرأ عليها. صحيح أن القلق كان حليفنا منذ أن عبر الأشقر عتبة المقهى لأول مرة، ولكن قلق لوليتا ذاك كان جديدا وغريبا.

والحق أن لوليتا كانت قد تحولت من طفلة الى امرأة عاقلة خلال الشهور التي تغيب خلالها ميغيل عن البيت، وهي نتيجة حتمية للمعاناة والألم النفسي اللذين كنا نكابدهما. لقد صقلت تلك الأحداث المشؤومة شخصيتها وشحذت عقلها، وهو ما لم يكن يعرفه الأشقر اللعين ولاخطر له ببال.

ولكنني تمكنت في النهاية من معرفة سبب قلقها: كانت قد تلقت صباح ذلك اليوم مكالمة من رينيه أخبرها فيها أن أختها تريد مقابلتها. ولما سألته عن أختها ولماذا لا تحدثها بنفسها قال لها أن كارمن مصابة ببحة قوية تجعل من العسير عليها التحدث عبر الهاتف، وطلب من لوليتا أن تنتظرهما عند قلعة سيغوفيا وحدد لها موعدا لذلك. وذهبت لوليتا بعد ذلك بنحو ساعة الى الساحة التي تعرفانها خارج القلعة وهي تطمع حقا بمقابلة أختها. لكن الأشقر كان بانتظارها بمفرده. وسألته ابنتي بفتور عن أختها فقال لها أنها تنتظرهما في مدريد لأنها تخشى المجيء الى سيغوفيا حيث لها معارف كثيرون يمكن أن تصادف أحدهم فيخبر والدها، لكن لوليتا رفضت مرافقته الى مدريد رغم

الحاحه عليها ولجوئه لكل فنون الاقناع التي يتقنها مع الفتيات الساذجات. ولم تكن ابنتي بالفتاة الساذجة، وكانت تعلم بالضبط لأي صنف من الأوغاد كان ينتمي ذلك الفرنسي. كانت لوليتا ، دون علم مني، قد قرأت رسالة أبيها، الأمر الذي جعلها بعيدة كل البعد عن مخالب ذلك الوحش ، وكان حذرها منه على أشده فلم تذكر له أي شيء عن مطاردة أبيها له اذ بدا لها أنه لم يكن على علم بها.

كان رينيه الذي أغوى كثيرا من الفتيات قد وقع في شباك صغيرتي لوليتا ، فقد أقنعته بأنها ستذهب الى مدريد في اليوم التالي لمقابلة أختها. كانت ابنتي الصغيرة قد أدركت نواياه الحقيقية وعدم مرافقة كارمن له في رحلته تلك لاسبانيا. ولم يخطر ببال الصياد بأنه وقع ضحية لعصفورة مهيضة الجناحين، فأعطاها عنوان الفندق الذي كان ينزل فيه في مدريد لتقابله هناك في اليوم التالي . وانصرف الأشقر مطمئنا الى أنه سيظفر بلوليتا على انفراد في مدريد حيث لا تعرف أحدا . أما ابنتي فعادت الى البيت وهي في الحالة التي وصفتها لكما من التجهم وهي لاتعرف ماذا تفعل ، حتى أخبرتني بكل شيء.

والمصائب أيها الصديقان لا تحل فرادى، بل مجتمعة. وهذا ما حصل في ذلك اليوم . فبينما كنت أهم بالخروج مع ابنتي لابلاغ ضابط الشرطة بعودة الأشقر طرق باب المنزل فلما فتحته وجدت زوجي أمامي. وكان لقاءا سعيدا لا أنساه ما عشت، فلم نكن قد افترقنا ولا مرة واحدة منذ زواجنا قبل ذلك بعشرين عاما.

ولكنني كنت أشعر أن تلك اللحظات لم تكن سوى صحوة الموت لسعادة آفلة . وصبرت حتى اليوم التالي فأخبرت ميغيل بأمر

الأشقر، فجن جنونه وفتحت كل جراحه مرة واحدة وراح يصرخ كمن فقد عقله:

«ألهذه الدرجة كنت طيبا مع الناس... ألهذه الدرجة اعتقدوا انني كنت غبيا». ثم لما هدء روعه شيئا ما ، واعتقد الآن أنه انما تصنع الهدوء حتى نصدق كلامه، قال لنا انه سيذهب لمقابلة رينيه عله يتفق معه على تمهيد لقاء مع كارمن مقابل أن ننسى جميعا الماضي . وألح علي وعلى لوليتا بعدم ابلاغ الشرطة كي لا تعرقل هذا الاتفاق. ثم ودعنا وانصرف.

أما بقية القصة فانكما تتوقعانها. لقد ذهب ميغيل الى الفندق الذي كان الأشقر نازلا فيه، وما أن قابله وجها لوجه حتى طعنه عدة مرات بسكين كبيرة اشتراها في مدريد لهذا الغرض.

وساد صمت جديد حتى سألتها عن لوليتا اذ لفت نظري عدم وجودها معنا ، فقالت كايتانا وقد استردت عيناها بعض بريقهما:

- لا عليكما. انها بخير. لقد ذهبت لمدريد لتعد بعض الأوراق الرسمية الخاصة بالتحاقها بالجامعة هناك. ألم أقل لكما أن لوليتا أصبحت عاقلة وواعية.

وتنفسنا الصعداء.

ولما خرجنا من ذلك البيت لم نتمالك سوى أن نلقي نظرة حزينة على ذلك المقهى وبابه المغلق وقد غطاه الغبار . وخيل الي في تلك اللحظات أنني أسمع ضجيج الزبائن ورنين الكؤوس والفناجين والملاعق، وصوت ميغيل يضحك ملء شدقيه ، يداعب هذا ويلاطف ذاك ويتناقش مع رواد المقهى بشؤون كرة القدم، ويصيح من حين الى

حين:

- يا كارمن.. قهوة بالحليب للسيد أنطونيو.

فأرى فتاة على عتبة الشباب تسارع لاعداد القهوة مستجيبة لنداء أبيها ، وابتسامة عريضة تعلو شفتيها وهي تداعب بكلام مرح أختا لها أصغر منها سنا تقضي معظم وقتها شاردة الذهن، فتسارع هذه الى نافذة صغيرة تطل على مطبخ كبير وتصرخ بأمها أن تأمر كارمن بالكف عن الهزؤ بها، فتضحك الأم الطيبة وتقول بصوت عال مداعبة بدورها ابنتها الصغرى:

- يا لوليتا متى ستصبحين كبيرة وعاقلة؟.

1976

عـزرائيل

فتح عبد الستار عينيه في ظلمة الليل فوجد عزرائيل أمامه، لا يدري كيف عرفه، ولكنه عرفه فور أن رآه. وارتعشت فرائصه تحت الغطاء واصطكت أسنانه هلعا وهو ينظر الى ملك الموت وجها لوجه. حاول أن يوقظ زوجته النائمة على يمينه فلم يملك حراكا. كان عزرائيل محلقا فوقه تماما. نعم. كان معلقا في الهواء في سكون عجيب.

ومرت لحظات مريرة كاد الرجل فيها أن يفقد صوابه من شدة الهلع . لم يكن هلعه لمجرد أن عزرائيل هو المعلق فوقه في الهواء... بل أيضا لهول المفاجأة التي ماخطرت له ببال قط... فحتى لو كان المعلق فوقه هو أخوه ابن أمه وأبيه لكانت مفاجأته مرعبة بحد ذاتها ، فما بالك والشاخص ببصره إليه هو عزرائيل، وما أدراك ما عزرائيل!!. كان الملك فوقه على إرتفاع لا يتجاوز النصف متر، ومحياه المنير قبالة وجهه تماما.

ولكن عبد الستار بدأ يشعر بعد هذه اللحظات الأولى من المفاجأة بسكينة جديدة تستقر في قلبه وتلف روحه... سكينة لم يعهدها أبدا في حياته. واستغرب الرجل استغراباً شديداً وتساءل في قرارة نفسه عن مصدر تلك السكينة التامة والرائعة التي ما كان

ليصدق أن لها وجود لولا أنه شعر بها وهي تذيب فيه كل هاجس. وسرعان ما أدرك مصدرها وهو يثبت نظره، دون إرادته، في عيني عزرائيل اللتين كانتا تشعان محبة وسلاما كأنهما عينا الأمومة. الأمومة التي تتفرع عنها كل مشاعر الاطمئنان. ياله من شعور فريد. مبارك أي حدث وسط هذا الحبور... مبارك الموت إذا كانت هذه مقدماته. وارتجف عبد الستار من جديد إذ ذكر الموت، وعينا الملك مازالتا مثبتتين في عينيه. كان لا يقوى على حراك أو نطق.

ولكنه نطق. وجد نفسه يقول وجلا مترددا:

- من أنت؟

وفكر للتو أنه سؤال سخيف.

وجاءه صوت كأنما صدر من أعماقه هو ، ولم يحرك عزرائيل شفتيه اللتين ظلتا مطبقتين وعليهما ابتسامة لا أروع منها:

- أنت.

ولم يفهم عبد الستار، وظن أنه لم يسمع جيدا، فسأل متلعثما:

- ماذا؟.

- قلت أنت.

يا للجنون. كيف يقول أنه أنا وأنا أعرف يقينا أنه هو.

وأراد أن يغمض عينيه عله يغط في النوم من جديد. لابد وأنه كابوس... لابد وأنه حلم. ولكن عينيه ظلتا مفتوحتين يقظتين تعانقان عيني الملك المحلق فوق رأسه، أو هكذا بدا له.

وعاد يلوك سؤاله ،كأن لسانه مصاب بشلل:

- تقول أنك أنا؟.

وصمت لحظة فلم يتلق جوابا، فاستأنف يقول:

- لم لا تقول أنك عزرائيل؟ إنني رجل مؤمن.

وجاءه الرد نابعا من أعماقه مرة أخرى ووجه الملاك لا يكدر نوره وسط الظلام المحيط بالسرير:

- أقول لك للمرة الثالثة أنني أنت، وأنت تعلم سبب زيارتي هذه. إنني لا أزور البشر في هذا الكوكب إلا مرة واحدة في حياتهم.

- أحان أجلي؟

- بلى.

وشعر الرجل أن دموعه تسيل حتى أذنيه وأراد أن يمسحها فلم تستجب له يداه. وتقلبت زوجته في نومها حتى أعطته ظهرها وهو يتمنى لو انها تفيق من سباتها لتمد له يد العون. ولكن أي عون يرتجى منها في موقف الختام هذا. كان يتمنى لو أن أحدا ينقذه من عزرائيل ولكنه كان في الوقت نفسه يشعر بوئام تجاه الملاك يكاد يكون التحاما.

وجاءه الصوت من جديد والوجه المنير قابع فوق عينيه، دون أن تتحرك شفتاه :

- ايبكيك فراق الدنيا؟ أم يبكيك فراق نفسك؟.

- بل فراق أحبتي وكل ما الفته طيلة سنوات حياتي. نفس الشعور الذي اعتراني عندما انتقلت من بيت الى بيت جديد ومن مدينة الى مدينة أخرى أجهلها.

- هي كذلك. رحلة من عالم الى عالم. فلا تخف.

- لست بخائف إنني رجل مؤمن بالله. كل الناس تموت... و كل الحيوان... كل روح تموت... منذ ملايين السنين والبشر تموت حتى ليبدو أن الموت هو أسهل فعل يقوم به الإنسان. حتى الجبناء يموتون.

ياله من حوار عجيب هذا الذي يدور بينه وبين ملك الموت... كما لو كان يعرفه منذ دهر.

وتذكر أولاده وأحفاده، وتذكر إخوته الواحد تلو الآخر. لم يخطر له ببال يوما أنه سيكون أول الأشقاء بالإ نتقال الى جوار ربه وهو ليس أكبرهم سنا. وتذكر تجارته الواسعة وبيته الفسيح وجاهه وماله ورغد العيش الذي اعتاده منذ نعومة أظفاره، فلم يملك سوى أن يجهش بالبكاء. إن فكرة الموت لا ترهبه ولكنه فراق أهله وصحبه وحياته الرغيدة تمزق أحشاءه. هو يعلم أنه لا مرد للموت... إن لم يحن اليوم، فغدا. وهو يفكر بالموت منذ سنوات، وبإلحاح منذ أن تجاوز السبعين من العمر... كل دقيقة بعد السبعين هي محض هدية... كل يوم عاشه بعد السبعين سرقه من الزمان خلسه. ولكن! ماله يشعر بتشبث شديد بالحياة!؟

وجاءه الصوت من جديد صادرا من أعماقه هو:

تتشبث بالحياة الدنيا ككل إنسان تحين ساعته. إني أرى هذا منذ بدء الخليقه، ذلك أنكم تجهلون ما بعد الحياة.

ووجد نفسه يسارع بالقول متلهفا وناظرا الى عيني الملاك بوله وشوق

حبذا لو أودع الأهل والأحبة، وأرتب شؤون أولادي وبناتي

وزوجي قبل رحيلي.

- ولم لم تفعل ذلك من قبل؟ كنت تعلم علم اليقين أنني زائرك لا محاله وأن موعدنا أصبح وشيكا.

- لا أدري.

- أنت مثل كثيرين غيرك... تظن أن هذه هي المسألة الوحيدة المعلقة التي ستخلفها بعدك.

كان الصوت يأتيه مفعما بمحبة لاتضاهيها محبة. ولم يفهم عبد الستار كلامه الأخير، فسأله وجلا:

- ماذا تقصد؟.

- شؤون ولدك وزوجك هي التي تقلقك إذ حان وقت الرحيل. أما شؤون أخرى كثيرة تخصك الآن أكثر من هذه فلم تخطر ببالك في هذه اللحظة الختامية.

وأثارت هذه الكلمات القلق في نفس الرجل وسط السكينة التي كانت تلفه من حيث لايدري، فردد بلسان شعر به ثقيلا يكاد لا يتحرك:

- ماذا تقصد؟ إنني لا أفهم.

- نفس الموقف يتردد كلما زرت إنسانا اجتمعت له ظروف سنك وأولادك وجاهك وما تسميه أنت بالإيمان.

كان الصوت لا يشوبه تأنيب أو تعنيف، وكانت الكلمات تقع على سمع عبد الستار ببطء وتأن، حتى كأنه كان يراد لها الوقت الكافي للإستقرار في القلب كلمة تلو كلمة.

وعاد الرجل يسأل ، وقد غشته عشرات الذكريات مرة واحدة، كلها واضحة كأنما كان يراها لحظة وقوعها

- ماذا تقصد، بالله عليك؟.

- عزرائيل لا يحاسب أحدا بل يقبض ويمضي، أما الحساب فهو لله عز وجل.

- ولكنني كنت رجلا صالحا دوما..

وأصابه الشك لوهلة فتوقف ثم استطرد يقول:

- باستثناء بعض الزلات وبعض الأخطاء.

- لا حاجة بك للإنتظار كي ترتب شؤون بيتك، فهناك شؤون كثيرة أخرى كان عليك أن ترتبها قبل هذه الساعة. ولم تفعل. فما فائدة أن ترتب شؤونا أخرى لم تعد تعنيك؟.

وشعر عبد الستار بالرعب يتسلل الى قلبه من جديد، وأحس بالهلع مقبلاً عليه من كل صوب، فتشبث بعيني عزرائيل مستلهما المزيد من السكينة والطمأنينة، وسأله بلسانه الثقيل:

- شؤون كثيرة بلا ترتيب؟. بالله عليك ماذا تقصد؟. لقد قضيت معظم حياتي في أداء الصلوات الخمس وصيام رمضان وأداء الزكاة وحججت الى بيت الله المرة تلو المرة وإن إيماني بالله عميق والناس كلها تتحدث عن مناقبي وشيمي. كنت واثقا من رضا الله عني ومن أن الجنة مآلي.

- الى الجنة أو الى غيرها هو أمر لا يعنيني يا إنسان. إنما أردت لك أن تتذكر، ولو فعلت لندمت وطلبت الغفران من الرحمن الرحيم

ولربما يغفر لك في آخر لحظة من حياتك فتصبح أكثر قربا من الجنة.

- ولكن؟!!

- ليست الجنة بمجرد صلاة وصوم.

ووجد عبد الستار نفسه بغتة يفهم أمورا كثيرة، وكأنما أزيح أمام عينيه ستار انكشف خلفه الكون على صورته الحقيقية التي لا تشبه كثيرا تلك التي اعتادها عموم البشر في مجتمعه. وسالت دموعه وهو في خضم استرحام واستلهام عميقين. وظل ينظر للملاك المحلق فوقه منيرا، الى أن تمتم قائلا:

- أو ضاعت حياتي سدى؟.

- الله يغفر لمن يشاء من عباده.

ومرت في ذهن الرجل حكايات عمر بكامله، خمسة وسبعون عاما. وتجسد في خياله فجأة وجه أبيه فوجه أمه وتذكر كل ما كان منه تجاههما من جحود حتى توفيا الواحد تلو الآخر وهو بعد في الثلاثينات من العمر. وشعر بانفجار يكاد يدوي في حلقه من شدة المرارة. وتراءت له وجوه أناس آخرين من أهله ظلمهم منذ سنين طويلة وغيبت القبور أو السنون وجوه بعضهم بينما ما زال البعض الآخر منهم يكن له الضغينة. وندت عنه محاولة صرخة كأنه يناديهم.. إنه لم يعبأ بهم منذ سنوات طويلة.

وجاءه الصوت والملاك لم تتحرك شفتاه قط ولم تزل عنهما الإبتسامة العطوف

- ها قد بدأت تتذكر ودموعك كأنها تغسل نفسك وتطهرها...

تابع ...لا تتوقف.

- ولكنني إنسان مستقيم، لم ارتكب فاحشة...

ولكنه توقف ثم ردد بلسان الصدق الذي اكتسبه مد تبدى له ملك الموت:

- أقصد أنني لم ارتكب فاحشة منذ سنوات كثيرة. كنت على يقين من أن صلواتي وصيامي وحجي وزكاتي تعيدني طاهرا كيوم ولدت.

- الله يغفر لمن يشاء. جاهك الدنيوي كبير ومالك كثير، أي تضحية كانت بالنسبة لك أن تخرج الزكاة أو أن تحج إلى البيت الحرام ؟. ملايين لا حصر لها من البشر لم يحجوا... أيعني ذلك أن مصيرهم جميعا جهنم؟.

- الحق انها ما كانت من تضحيات تذكر، والحق أنني كنت أتباهى أمام الناس كلما عدت من مكة المكرمة. الحق أنها كانت حجات لإرضاء ذاتي بقدر ما كانت لوجه الله تعالى.

- هناك من البشر من يحجون ولا يسمع احد بحجهم إلا صدفة، وهناك متصدقون لا يعلم أحد بصدقاتهم ومصلون لا يتحدثون عن صلاتهم. العبادة من أجل المعبود ومن أجل نصرة الخير هي وحدها العبادة.

- أما أنا مكنت دائم الحديث عن صلاتي وصومي وزكاتي. يا للعار.

وحضره مجأة محيا صديق له طمرت ذكراه السنوات. وتذكر

كل الأذى الذي أنزله به عامدا متعمدا لمجرد أن ذلك الصديق وبخه ذات يوم، قبل سنوات تتجاوز الأربعين، وفي جلسة لم تضم سواهما، لتقاعسه عن العمل الوطني ولعدم اكترائه بما حل بالوطن من ويلات على يد المحتل. وانهمرت دموع عبد الستار من جديد وهو يردد كأنما يحدث نفسه:

- كان بمثابة أخ بالنسبة لي. لم ألحقت به كل ذلك الأذى؟!. ترى ماهي أخباره اليوم؟، أحي هو أم ميت؟. كان وطنيا ملتحما بالشعب كأنه ضميره الواعي... وطني وشعبي الذين ما التفت إليهما يوما رغم كل مانزل بهما من ظلم ومهانة وتنكيل على مرآى مني، يوما بعد يوم ، وسنة بعد سنة. وأخذ عبد الستار يصيح بفؤاد موجوع في خضم صحوة الضمير التي كانت تجتاحه:

- يا للعار ... يا للعار. ما الذي فعلته كل هذه السنين!!.

وجاءه الصوت يحثه على سبر المزيد من أغوار الذاكرة:

- ما أصدق هذه الدموع . لعل فيها المنفذ.

وتعاقبت في مخيلة الرجل صور رجال ونساء وأطفال. وحكايات عمر طويل بأكمله، فبكى حتى ظن أن وسادته قد تخضبت بالدموع. حتى أصغر الأمور تذكرها... وإذا به يرى طوابير من الناس تمر من أمامه... وتأمل وجوههم وشاهد عيونهم تحملق به. عرفهم جميعا رغم ان بعضهم لم يلتقيه إلا للحظة وربما لم يتبادل معه سوى كلمة أو إثنتين... كانوا جميعا أناسا نهرهم لسبب أو لآخر أو ردهم مخذولين إذ لجأوا اليه يطلبون العون... كم من البشر نهرت وخذلت منذ مطلع شبابي!! يا إلهي ما أكثرهم ، ويا لنظره الاشمئزاز

هذه التي يرموني بها.

وما أن توارى الطابور الأول عن نظره حتى مرت أمامه طوابير جديدة من رجال ألحق بهم الضرر في معترك حياته التجارية فتسبب لهذا بخسائر ولذاك بالإفلاس ولثالث بسوء السمعة، وهلم جرا ... وكان كل منهم يجر وراءه في الطابور زوجه وعياله. وهاله المنظر وروعه . لكن سرعان ما تبدى له طابور آخر، يتألف من رجال وظفهم في تجارته ثم طردهم لسبب أو لآخر... وكل تتبعه روجته وأطفاله . ومرت أمامه جماعات أخرى من الناس، رجال ونساء ، ممن اشتروا منه سلعا وتضرروا منها بشكل أو بآخر، وجماعات دفع افرادها له أثمانا باهظة لقاء مشتريات جنى فيها أرباحا لايقرها دين ولا خلق، وجماعات من أشخاص عرفهم في سني حياته ، منذ صباه ، فاستغابهم ونهش أعراضهم وطعن بهم في سياق ثرثرات طالما ملأ بها أوقات فراغه. وما هي إلا ومر به طابور جديد، كله من النساء ممن نال وطره منهن أو أقام معهن علاقة محدودة أو طاردهن أو اشتهاهن أو رمقهن بنظرات سرية أودعها النزق من شبقه. تعرف على كل الوجوه في كل الطوابير والجماعات، ورماه كل رجالها ونسائها وأطفالها بنظرات الازدراء والإشفاق واللوم والحنق . لم يكن يوما ليتصور أنه قادر على تذكر كل تلك الوجوه وتذكر المواقف التي عرفها فيها. وهاله هذا العدد من الناس الناقمين عليه... ما خطر بباله قط أن جوهر حياته كان على هده الدرجة من الإختلاف عن رأيه بنفسه وعن رأي كثير من الناس به. كان يعتقد أن ماضيه قد أصبح في عداد العدم بعد كل صلواته وصومه وركاته وحجه الذين ملأ بهم العقدين الأخيرين من حياته... صحيح أنه يواظب على الصلاة والصوم مند نعومة

أظفاره، إلا أنها كانت حقبة مترعة بالحياة والمزالق تلك التي امتدت حتى ما بعد الخمسين من عمره.

لم تكن دموعه قد انقطعت لحظة، ولكنه كان يبكي بصمت واستسلام وقد تشبث طيلة الوقت بعيني ملاك الموت يستمد منهما الثبات ورباطة الجأش، بينما كان الملاك يحتضنه بنظرة الرأفة.

وما لبث الشيخ أن فغر فاه دهشة إذ رآى أمام عينيه عدداً لا يحصى من الوجوه ذات السمات الواحدة التي لا إختلاف بينها. ولم يفهم. كانت الوجوه تنظر إليه غاضبة مكشرة، حتى اقشعر بدنه لرؤياها ، فسأل وقد بدأ عقله يزوغ:

- من هؤلاء؟.

فجاءه الصوت رخيما مواسيا:

- إنها ساعات من حياتك.

- ساعات من حياتي؟.

- إنها ناقمة عليك لأنك أهدرتها بلا فائدة لك ولا لغيرك.

- ماذا؟ هل ضيعت أنا كل هذه الساعات من عمري!!.

- نعم... كل هذه... آلاف من الساعات مهدورة في أمور تافهة وأحاديث فارغة، بل وبانزال الضرر بالغير من حيث كنت تعلم أو لا تعلم ، أو بارتكاب المعاصي.

- الهذه الدرجة ؟!.

- ما الحياة إلا ساعات معدودة يا إنسان، محسوبة عليك جميعها، وتسأل عنها واحدة واحدة. إنك تناشدني الآن مهلة قصيرة

لترتيب شؤون بيتك قبل الرحيل وتنسى أنك أهدرت كل الساعات التي تشاهدها أمام عينيك.

كان لا يحيد ببصره عن طلعة عزرائيل البهية وكان يرى كل الوجوه وكل الذكريات دون حاجة لأن يحول نظره عن المحيا الماثل فوقه بنوره الأخاذ.

وما هي إلا لحظة حتى لاحت له آلاف أخرى من الوجوه.. كلها ذات قسمات واحدة... كلها بدت معنفة له وحاقدة عليه. وروعه المنظر أكثر مما سبق. وكان قد ظن لوهلة أن الطوابير انتهت وأن ذنوبه انتهت معها فإذ بها تظهر له من جديد حتى بدت نهرا دفاقا لا نهاية له فتمنى الموت للتو واللحظة إذ لم يعد يطيق كل هذه الذكريات والشواهد . فمن هم الآن أعضاء هذا الجمع الغفير من الوجوه!.. ما الذي تبقى بعد الساعات المهدورة والأيام الضائعة من العمر !؟. وسأل مبتهلا بلسان ثقيل:

- ما هذه الوجوه وما بها ناقمة علي؟.

- كل وجه منها يا ابن آدم هو قرش صرفته في غير فائدة لك ولا لأهلك ولا لقومك ولا لأي فقير على وجه الأرض.

- يا للهول !! أكل هذه أموال ضيعتها أنا!؟. أكل هذه الوجوه أيضا ستكون شهودا علي تقف حائلا بيني وبين الجنة ؟!.

ولم يأته من جواب، بل أن وجوها جديدة لا عد لها ظهرت أمام عينيه بغتة، فأسقط في يده إذ رآها كلها ترمقه بعيون محمرة غاضبة، فأجهش باكيا وهو يصيح.

كفى كفى أتوسل إليك . إقبض روحي وابعد عني هذه

الوجوه.

وجاءه الصوت الرخيم بحدثه وعينا عزرائيل تحتضنه إحتضانا:

- هذه أيضا قروش، لكنها تلك التي حصلت عليها بدون حق في تجارتك وطيلة حياتك.

- أنا؟ كيف؟.

- طبعا أنت، كان همك الوحيد الربح فلم ترحم أحدا جاءك مشتريا، مهما كان فقيرا.

- يا إلهي!.

لكن معاناة عبد الستار لم تنته عند هذا الحد ، ولولا عينا الملاك ونوره الذي لم يكن يكف عن بث السكينة في قلبه لجن جنونه. فقد احتشدت أمام ناظريه من جديد وجوه أخرى لاحصر لها، كلها بيضاء لا ملامح لها ، وكانت جميعها تبث في نفسه، من حيث لا يدري، ندما وحسرة. ونظر اليها بعينين زائغتين وبقلب قانط... ما أبعد الجنة عنه... إنه يشعر أن بينه وبينها أكوان. وجاءه الصوت نابعا من أعماقه هو:

- هذه هي الأعمال الخيرة التي أتيح لك أن تنجزها وكان عملها في متناول يدك ولكنك أحجمت عنها ، وتلك التي كان من واجبك أن تفعلها ولكنك تقاعست، وأخرى ناشدك ضميرك أن تقوم بها ولم تستجب له ، طيلة حياتك.

وذهل الرجل أيما ذهول، وأدرك أن ذلك العدد الهائل من الأعمال الخيرة كان لها ان تكفل له الجنة دون أدنى شك، وسال دمعه سخينا

والحسرة تأكل قلبه ، وعيناه معلقتان بمحيا عزرائيل، يسترحمه ويستلهمه، وهو يشعر أن روحه بلغت الحلقوم.

وإذ بالصوت يحدثه والوجه المنير مطبق الشفتين على ابتسامة خير:

- هناك المزيد. أتريد مشاهدته؟.

- أذكره دون أن أراه. لقد فهمت مرادك. ما أبعد حالي الآن عما كنت عليه قبل مجيئك. كنت أحسب بحساب البشر.

- بل نبهتم يا إنسان الى انه حساب لا حساب يضاهيه. كل لقمة وكل جرعة تناولتها في حياتك وهي فوق حاجتك وأنت على علم بأن في العالم فقراء، بل وعلى مقربة منك، ممن هم بأمس الحاجة إليها. كل كلمة نطقت بها بغير الحق... وكل كلمة حق لم تنطق بها في ساعتها... شاهدة عليك.

وأخذ عبد الستار يئن ويردد، وقد خارت قواه:

- غير معقول!... يا للهول!... ما فائدة المزيد من العيش وتعويض كل هذا يتطلب عمرا جديدا بأكمله. خلصني... أتوسل اليك.

وحاول عبد الستار يائسا أن يحرك يديه فلم تستجيبا له، وشعر بنفسه على شفا هاوية سحيقة مظلمة، وعاد الى حالته الأولى من الهلع وقد فارقته السكينة، فصاح مسترحما من جديد:

- ما الفائدة؟. خلصني من هذا العذاب. لم ضيعت معي كل هذا الوقت... ما الفائدة؟.

وجاءه الرد باعثا فيه سكينة جديدة:

- لم يلبث عزرائيل معك من الزمان سوى طرفة عين. لقد كنت صاحب سريرة فيها من الخلو أكثر مما فيها من القصد، ومن الخير أكثر من الشر.

ولم يفهم عبد الستار الكلمات الأولى ولكنه ارتاح لسماع الكلمات الأخيرة وشعر أنه يبعث من جديد.

تسللت الشمس عبر النافذة... وأخذت تغمر الغرفة بنور واه مصفر اللون. وفتح الإنسان الجديد عينيه بصعوبة فوجد فوقه عيون ترصده باهتمام شديد، وأصوات نسائية تجلجل في أرجاء المكان وأحدها يقول بصوت ملؤه الحنان:

- يا له من وليد رائع، لقد فتح عينيه، إنه ينظر إلينا وكأنه يعي ما حوله.

1993

الغــريم

كان صديقي إسماعيل، أستاذ العلوم السياسية في الجامعة وابن الحسب والنسب، معروفاً في الأوساط الراقية بأنه زير نساء، يستغل عزوبيته للتنقل من حسناء الى حسناء، وكل منهن تمني النفس بأن تكون نهاية المطاف وزوجة المستقبل وأم الأولاد. وكلكم تعرفون صديقي اسماعيل، الذي لم تفعل سنواته الأربعون إلا إضفاء المزيد من الوسامة على مظهره الذي أنعم الله به عليه، فقد كان في عالمي الفِكر والنساء لا يشق له غبار. وسبحان مغير الأحوال، فقد أصبح منذ زواجه رب بيت مثالي.

كنت وزوجتي نعتقد جازمين بأن القطار سيفوته، أعني قطار الزواج، إن هو ظل على حالته تلك من اللامبالاة. ولذلك عقدنا العزم على أن تكون محاولتنا تلك لتزويجه حاسمة ونهائية، وكيف لا تكون كذلك والفتاة التي خططنا لتقديمها اليه كانت من ذلك النوع من النساء اللواتي إذا مررن أمام الرجل، مجرد مرور، تركنه ذبيح القلب تنهشه الحسرات.

كانت ناهده، الابنة الوحيدة لصديقنا الكاتب المعروف شريف الزياتي، فتاة مثقفة وبارعة الجمال، ولكنها كانت مصرة على رفض الخطيب تلو الخطيب حتى أشرفت على الثامنة والعشرين من العمر.

وكنا على ثقة من أنها ستشفي إسماعيل حال وقوع بصره عليها، من كل أمراضه النفسية التي تدفعه إلى غرامياته المتوالية تلك، وتضع نهاية لرعونته.

وكي نجمعه بها ليتعارفا، فتكون النظرة فالإبتسامة فكل المراحل التي وصفها شوقي في شعره والتي توصل الرجل الى قفصه برجليه طواعيه، دعوناه الى العشاء بصحبة عدد قليل من الأصدقاء بينهم شريف وزوجته وابنته. وكان اسماعيل على علم بنوايانا، وكنا قد وصفنا له البنت وعائلتها وصفا يسيل له لعاب الأعزب من أمثاله لو كانت لديه حقا نية الزواج.

وما أن التأم المجلس حتى تحققت صحة توقعاتنا، فقد كان اسماعيل لا يكف عن إختلاس النظر لناهده مشدوها بجمالها وببهاء حضورها في المجلس. ولم ينس أن يغمز لي بعينه في أول فرصة سنحت له تعبيرا عن إعجابه بها.

ولكن، وأعوذ بالله من كلمة لكن ، حدث بعد العشاء ما لم يكن في الحسبان. فإلى جانب إعجاب صديقي بابنة صديقي الآخر، وقع صدام غير متوقع بين الكاتب الروائي واستاذ العلوم السياسة، حيث، ولا أدري كيف، برز الى حيز الحديث موضوع حرب الخليج، فاصطدما في الرأي بصراحة جارحة أحرجت بقية المدعوين الذين لم يفتهم، كما لم يفتني وزوجتي، التنافر الذي وقع بين الرجلين منذ جلوسهما الى الطعام، ومن أول نظرة.

وحاولت كل جهدي تغيير مجرى الحديث بعيدا عن العراق وايران. فإذ بنا ننتقل الى القضية الفلسطينية، فتنفستُ الصعداء لأنها

موضوع لا يختلف على قدسيته وعدالته عربيان، إلا أنهما سرعان ما إصطدما على مواضيع جانبية تتعلق بالقضية، فهرعت بهما الى ايرلنده فالصين فالبلاد العربية بلدا بلدا فأوروبا حتى اضطررنا الى العودة الى منطقة الخليج، فقد كانت أرحم من غيرها، والرجلان لا ينزل أي منهما سيفه في النقاش المحتدم بينهما. وكانا يتناقشان بعصبية وتوتر حتى بلغ الإحتداد بينهما حدا أفلتت به الجلسة من يدي فإذا باسماعيل يهب واقفا، وصراخ الرجلين يصم الآذان، ويقول بأعلى صوته لشريف، متهكما، غير آبه بفارق السن بينهما، والذي يفرض عليه مبدئيا احترام غريمه:

- منذ متى يجرؤ روائي مثلك، مهنته تطريز الخيال، على مناقشة أستاذ علوم سياسية مثلي في شؤون السياسة الدولية. إنها مسخرة آخر الزمان.

وبالطبع جرح كلام اسماعيل هذا صديقي شريف جرحا عميقا، لا سيما وأنه وقع على مسمع من أصدقاء آخرين كلهم من صفوة المجتمع الفكري، فرد عليه متهكما بدوره والجدران من حوله تهتز لصوته

- كم من أساتذة السياسة من أمثالك لا يفقهون منها سوى حفظها عن ظهر قلب، لذلك تظل أنت أستاذا دون قيمة في الحياة السياسية تماما كأستاذ الأدب الذي لا ذكر له في عالم الأدب.

وانتهت جلسة تلك الليلة على أسوأ ما يمكن لها أن تنتهي. وجلست مع زوجتي بعدها لوحدنا حتى انفلق الصبح ونحن على وشك أن يفلقنا الغضب والغيظ إذ ضاعت كل جهودنا سدى، بل

وأدت الى خلق عداوة شديدة بين إثنين من أعز أصدقائنا. وحاولت معها أن نسبر الأسباب الكامنة وراء تنافرهما مذ جلسا على مائدة العشاء فلم نجد مبررا إلا تلك النظرات الولهة التي كان اسماعيل يرشق بها ناهده، فإنه لمن المؤكد أن شريف، وهو الشديد الغيرة على ابنته، قد لاحظ تلك النظرات وفهم معانيها. ولم يتبق علي وعلى زوجتي بعد ذلك سوى أن استنتجنا أن شريف، وهو الأديب، يقرأ ما خلف الكلمات والنظرات، وأنه يعرف السمعة التي اشتهر بها اسماعيل كزير نساء، فاكتملت لنا الصورة، ولم نعد نشك في السبب الحقيقي لذلك الصدام الشرس الذي أحاطه الرجلان بهالة فكرية زائفة أثناء الجلسة.

ومنذ تلك الليلة اتسمت علاقات اسماعيل وشريف بالتوتر المستتر، فكلاهما ينتميان الى نفس حلقات الصداقة ولم يكن بوسعهما تفادي اللقاءات في بيوت بعض الأصدقاء أو في الأماكن التي يرتادها أعضاء الوسطين، الفكري والسياسي.

ورغم الكراهية المتبادلة ، التي طالما باح لي بها كل من اسماعيل وشريف، وجد الرجلان أنه لم يكن بوسعهما شن حرب علنيه على بعضهما لأن ذلك من شأنه أن يثير من حولهما اشمئزازا فعزلة.

ومع مرور الوقت، باح لي كل منهما، وكلاهما ذكي، بأنه يرى من الأفضل كسب ود غريمه رغم ما يكنه له من بغض. فإذ بشريف يكاد لا يدع محاضرة أو ندوة يشارك بها اسماعيل إلا ويهرع لحضورها، بينما كان اسماعيل لا يفوت مقالة لشريف تنشرها إحدى الصحف إلا ويقرأها إضافة الى أنه حرص على قراءة كل رواياته.

وكان كل منهما يتعمد مديح الآخر في كل مناسبة سانحة، لا سيما إذا كان غريمه موجود فيها. حتى إذا خلا أحدهما بي سفه كل ما يكتبه الآخر وأدعى أنه أردأ ما قرأ أو سمع في حياته.

وكانت لشريف خلال السنتين الماضيتين عدة إنجازات أدبية وصحفية رنانة، مما أثار غيرة اسماعيل. ورغم ذلك فإن السياسي لم يكن يضيع فرصة لإبداء إعجابه بأدب شريف، لا سيما في حضرة الكاتب، في محاولة دؤوب ومتبادلة لمحو ما بينهما من شعور بالتنافر كان في الواقع أقوى من إرادتهما. وأذكر إحدى جلساتنا عندما قال إسماعيل لغريمه الحبيب أمام عدد من الأصدقاء، في بيتي:

- لقد قرأت آخر كتاب لك. إنه في منتهى الروعة، وإنني أهنئوك من القلب يا عزيزي شريف.

وبدا أن ذلك المديح سر شريف أيما سرور فرد عليه وقد رسم ابتسامة عريضة على شفتيه:

- إنما يقدر الأدب الرفيع من هم في مثل مستواك العلمي الرفيع. وانه ليسعدني أن اسمع هذا الإطراء من أستاذ له شأنك وشهرتك.

وكان لهذه العبارة أثر مباشر وسريع على إسماعيل حيث احمر وجهه وطفح نشوة وهو يهز رأسه فاتحا كلتا ذراعيه الممدوتين تجاه شريف كأنه كان يقول له: «كفى مديحا فإنني أكاد أن أذوب خجلا».

وما أن انفضت تلك الجلسة حتى أسر لي شريف وأنا اصطحبه للباب مودعا:

- مسكين إسماعيل، إنه يستميت للحصول على اعترافي به

فيلجأ الى مديحي بمناسبة وبغير مناسبة فاضطر - ذوقا - لرد الإطراء مضاعفا.

وما هي إلا دقائق حتى قال لي إسماعيل وأنا أودعه بالباب:

- والله لولا أن شريف هذا هو صديقك لما مسست له كتابا، فليس هناك أسخف من رواياته، ولكن الحظ يلازمه. والمصيبة أنه يصدق إطرائي على أدبه ويأخذه مأخذ الجد.

وكانت مثل هذه المواقف تزعجني أيما إزعاج، وكنت أدرك منها مدى الضغينه المتبادلة التي ينطوي عليها قلباهما.

وعلى هذا المنوال مرت سنة كاملة حتى جاء يوم تحولت فيه تلك «الحرب الباردة» بين الرجلين الى جحيم حقيقي، وكل ذلك بفعل شرارة... شرارة الحب التي كانت قد حولت قلب إسماعيل الى هشيم دب فيه اللهيب.

وكان إسماعيل يخفي عني وعن الآخرين ذلك الحب المستعر الذي نشب في قلبه منذ لقائه الأول بناهده، إبنة شريف، في تلك الليلة اللعينة. ومع تكرار المناسبات التي جمعت إسماعيل بشريف وعائلته أخذ أستاذ السياسة، الذي لم يكن يشق له غبار في عالم النساء، يفقد إراداته رويدا رويدا إزاء سحر ناهدة وقامتها الممشوقة وعينيها السوداوين الصافيتين اللتين لذعته سياطهما المرة تلو الأخرى حتى نسي بها نساء الأرض جميعا وملكت عليه عقله وقلبه. ولولا العداوة التي كان يكنها لأبيها لما صبر لحظة واحدة على مفاتحتها بما كان يحرق قلبه.

ولكن تعاقب الأيام واستفحال النفاق الذي تسلح به الرجلان تجاه

بعضهما أدى في نهاية المطاف الى اقتناع إسماعيل بأن والد محبوبته يكن له شيئا من المودة ، فكان مثل جحا مصدقا لكذبة اخترعها بنفسه. وحمل هذا الوهم إسماعيل تدريجيا الى رؤية علاقته بشريف بمنظار قلبه الذي كان يقطر ولها لناهده، رغم أن الفتاة لم تكن قد منحته يوما كلمة تشجيع أو تلميح بمبادلته الحب، فقد كانت كأبيها تشمئز من صورة الرجل الماجن التي تلوكها الألسن وتبالغ في تصويرها.

حتى كان يوم أشد لعنة من تلك الليلة التي بدأت بها قصة إسماعيل وشريف، إذ ذهب إسماعيل الى منزل شريف بعد أن عج في رأسه الدخان المتصاعد من حريق قلبه.

ودار اللقاء بين الرجلين في بيت شريف تماما كما سأسرده عليكم، حسب ما رواه لي فيما بعد كل منهما على حده:

طرق اسماعيل باب شريف بغير قليل من الوجل والتردد، ففتح له شريف بنفسه ، وكان، لحسن حظ الزائر، وحيدا في البيت في تلك الساعة. وكانت دهشة صاحب المنزل كبيرة وهو يرى بالباب غريمه العزيز. ولم يحاول إخفاء دهشته تلك فهتف بشيء من التهكم بعد أن وجد أن الرجل قادم بمفرده:

- يا إلهي!... إنه الدكتور إسماعيل بلحمه وشحمه.

فرد عليه الضيف وهو يزدرد ريقه:

- بلحمي صحيح يا عزيزي، أما شحمي فقد خس الى النصف وأنا في طريقي اليك.

وفوجيء شريف بالإجابة ولكنه لم يأبه لها كثيرا، وأراد مجاراة

الزائر في المزاح فرد قائلا وهو يربت على ظهره علامة الترحاب:

- ياله من ابتكار جديد لتخفيف الوزن.

ودعاه الى الدخول وهو يضرب أخماسا بأسداس متوجسا خيفة من تلك الزيارة الغريبة. ولكنه لم يخطر بذهنه لحظة واحدة السبب الذي حمل إسماعيل الى بيته.

ولما جلسا في غرفة الإستقبال القى اسماعيل سلسلة مفاتيحه على الطاولة أمامهما وراح يتجاذب مع مضيفه أطراف حديث مفتعل دون أن يجد الجرأة الكافية على الخوض بالموضوع الذي جاء به الى بيت شريف. وأثار الزائر بكثير من الحذر موضوع النساء. وهكذا كان. ومن ثم حاول ان يجذب جليسه الى حديث عفوي عن مغامراته الغرامية وشبابه، ونجح بذلك الى حد ما إذ بدأ شريف يتحدث، وقد وضع ساقا على ساق، معتقدا حقا أن ضيفه ما جاء إلا للمجاملة في محاولة أخرى لاذابة الثلوج بينهما، فقال:

- كأي أديب فإنه لا غنى لي عن التجارب الشخصية، ولذلك فإنني لم أضيع فرصة إلا وانتهزتها لاثراء التجربة الذاتية لدي والتي اعتبرها منبعا لا ينضب لأي كاتب ناجح.

واكتفى شريف بهذا القدر من الحديث، دون الإشارة من بعيد أو من قريب الى غرامياته، ثم صمت. فسارع إسماعيل للامساك بطرف الخيط وقال:

- بل أن التجربة ضرورية لكل رجل، فما بالك إذا كان أديبا مثلك. والرجل ليس بسنيه ولا بماله ولا بحسبه ونسبه بل بحصيلة تجاربه وبعلمه.

فقاطعه شريف وقد استحوذ الحديث على مشاعره وأيقظ في نفسه رغبة المفاخرة بشبابه الماضي التي يتميز بها الواقفون على اعتاب الشيخوخة:

– كلامك في محله يا عزيزي ولقد أدركت هذه المعادلة منذ الصبا فعشت شبابي وما زلت بالطول والعرض.

ووقعت كلمة «عزيزي» على سمع إسماعيل وقع موسيقى سماوية فقدر أن شريف قد صار «جاهزا» نفسيا لمفاتحته بموضوع زيارته، فتململ في مقعده الوثير قبل أن يقول وابتسامة غير مطمئنة تترنح فوق ذقنه المرتعشة:

– يسهل على قارىء كتبك يا صديقي أن يستشف منها تجربتك الغزيرة والطويلة، لا سيما مع الجنس الناعم.

قال كلماته الأخيرة هذه وهو يغمز لشريف بإحدى عينيه وقد تحولت إبتسامته الى ضحكة متوترة إختلطت بالكلمات. وشعر شريف بقلق مباغت إذ سمع العبارة الأخيرة، ولكنه ظل صامتا حتى يدرك مرام ضيفه، وقد أوجس خيفة. فاستطرد إسماعيل قائلا بعد أن اعتدل في جلسته وأمات ضحكته وألغى ابتسامته:

– لكن الرجل منا يصل الى حد يمل بعده مثل هذه المغامرات وينشد الحياة المستقرة التي يستطيع بها أن يكون عائلة ويبني مستقبلا يكون فيه نافعا لأهله ولمجتمعه، وهي بلاشك التجربة الكبرى في حياة الإنسان.

ونظر إسماعيل لشريف كأنه يسبر أثر كلماته عليه، دون أن ينتبه الى الخطاب المستهلك الذي أخذ يلف حديثه، فوجد جليسه يهز

رأسه علامة التأييد والتشجيع على متابعة كلامه حتى النهاية وقد سيطر عليه شعور عميق بعدم الإرتياح وكسا الوجوم وجهه. فما كان من السياسي سوى أن قال وقد انتابه شعور السائق الذي ينطلق بسيارته بسرعة جنونية على منحدر خطر تحف بجانبيه الوديان دون أن يملك السيطرة على فراملها:

- ولهذا السبب بالذات جئت اليوم الى منزلك.

وسكت ملتقطا أنفاسه.

وبدا أن شريف لم يصدق أذنيه ، فظل للحظة محدقا بمحدثه، مشدوها ، ثم استجمع ذهنه وقطب ما بين حاجبيه وقال مشيرا الى نفسه باصبعه الشاهد وهو يخرج الكلمات من فمه كلمة كلمة:

- لهذا السبب جئت الى منزلي؟ أي سبب بالضبط؟ ارجوك الإيضاح يا سيد إسماعيل.

ولم يفت إسماعيل حلول كلمة «سيد»مكان «عزيزي» ولا اللهجة الإستنكارية التي صبغت سؤالي شريف، فتمنى لو نهض من توه واطلق ساقيه للريح، وقد شعر بخطئه إذ طرق باب غريمه. وأراد أن يكبح لسانه ولكن هيهات والطريق شديدة الانحدار والكابح لا يستجيب للسائق. وقرر الرجل العاشق أن يهرب الى الأمام فإذا به يقطب هو الآخر ما بين حاجبيه ثم يفرك يديه بقوة ويسند كوعيه فوق ركبتيه، مجمعا كلتا يديه، كأنه في حالة استغفار أو رجاء، دون أن ينتبه الى سخافة وضعه ذاك، اذ كان غارقا في هواجسه، ثم قال.

- نعم يا سيد شريف. إن مصارحتك بالموضوع ليست بالأمر السهل، لا سيما وان الناس حولنا لا يكفون عن الحديث حول تنافر

مزعوم بيننا، بل وعن عداوة لا أعرف لها سببا. وإنني على ثقة من أنها مجرد إشاعات يطلقها حسادك وحسادي على حد سواء.

وصمت إسماعيل هنيهة ليتيح لشريف أن يقول شيئا بهذا الصدد، كأن يؤيد مثلا أن العداوة بينهما هي مجرد إشاعة، ولكنه لم يكن يرى أمامه سوى عينين محدقتين به ورأسا لا يكف عن التأرجح لأعلى وأسفل وفما مفتوحا ويدين تقبض الواحدة منهما على الأخرى، تماما كيديه هو. ولما لم ينبس شريف بكلمة لم يجد إسماعيل بدا من مواصلة الفرار الى الأمام عله يعثر على مخرج من تلك الورطة السوداء التي أخذت تتجسد في ذهنه بوضوح، فقال:

- أقول... أنه ثقتي بكرم اخلاقك وبحسن نيتي تجاهك جعلتني أتقدم لطلب يد إبنتك ناهده، وكلي ثقة بأن مطمحي سيجد لديك ولدى الآنسة ناهدة والسيدة والدتها أطيب الأثر.

وكف عن الحديث وقد تفصد العرق من جبينه. واستطلع اثر الصدمة على شريف الذي ظل للحظات بعد سماعه العبارة الأخيرة محملقا فاغر الفم وقد كف عن هز رأسه. وفجأة انتصب شريف واقفاً كأن تيارا كهربيا اجتاحه بعنف، وهتف بصوت اهتزت له جدران البيت:

- إبنتي؟ ناهده؟... مستحيل.

وهنا انتصب إسماعيل واقفا هو الآخر واستجمع شجاعته بغمضة عين محاولا تطويق الموقف وقد أدرك مرة واحدة فداحة خطئه، فهتف بشريف محاولا تهدئة روعه:

- شريف. أرجو أن تفهمني ولو للحظة. إنني أحب إبنتك ولا

أطيق العيش بدونها وأحب فيها الأخلاق التي ربيتها أنت عليها، ولولا أن الأمر بالنسبة لي هو مسألة حياة أو موت لما جئتك بنفسي!!

واقشعر بدن شريف وهو يسمع تلك العبارات الغرامية من رجل عرف عنه مجونه واستخفافه بالقيم الأخلاقية. وإذ به يهرع الى باب البيت فيفتحه والشرر يتطاير من عينيه ويهتف بإسماعيل:

- أرجو أن تكون هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي تطأ بها قدماك منزلي أيها أل...

ولم يكمل كلمته الأخيرة، في الوقت الذي اهتز فيه إسماعيل من رأسه الى أخمص قدميه وهو لا يصدق النهاية التي آلت اليها زيارته، وانتابه شعور هائل بالإهانة والندم. فالتقط سلسلة المفاتيح من على الطاولة وهرول الى الباب وهو ينظر الى شريف شزرا صائحا به بصوت يهدر كالرعد:

- كنت أريد أن أشرفك بمصاهرتي يا قليل أل...

ولم يكمل كلمته هذه، وإنما أراد الإنتقام من «أيها أل...» التي شتمه بها شريف. وما كاد إسماعيل يجتاز باب الدار حتى صفق خلفه بقوة شديدة.

ولما صار إسماعيل خارج منزل غريمه أخذ يرتجف من الغضب واطلق للسانه العنان منزلا ابذأ الشتائم بشريف. وتوجه بخطى سريعة نحو سيارته، فلما أراد فتح بابها اكتشف أن سلسلة المفاتيح التي أخذها لم تكن له، فاستدار ليعود الى باب المنزل الذي طرد منه لتوه، ولكن نفسه أبت عليه أن يطرقه من جديد، فعاد أدراجه الى بيته سيرا على قدميه، وهو يحاول تنظيم أفكاره وتهدئة أعصابه.

ومنذ تلك الواقعة تحولت الحرب بين الرجلين من باردة مستترة الى ساخنة ومعلنه. وعرف مجتمعنا الصغير في الأيام التالية ما كان من طرد إسماعيل شر طردة من بيت شريف، بينما بذل إسماعيل كل ما بوسعه لينفي هذه الرواية وليؤكد أنها نسجت من خيال الروائي وعائلته. وأكد لي شريف أنه لم يقدم على إذاعة قصة طرده لاسماعيل، وأن زوجته هي التي روتها لإحدى صديقاتها، فكان ذلك كافيا لأن ينتشر الخبر كما النار في الهشيم.

واستفحل الخلاف بين الرجلين حتى أدى الى عدة مشادات واصطدامات شفهيه، ولم ينشر شريف في الأسابيع التالية مقالة أو قصة إلا وأرسل إسماعيل مقالة للصحيفة أو للمجلة التي نشرتها منتقدا فيها أعمال غريمه. وكانت الصحف والمجلات تنشر تلك الإنتقادات مستغلة شهرة إسماعيل كمفكر سياسي لامع. ولم يكن شريف أقل شأنا في هذا المضمار، فكتب عدة مقالات بدوره يسفه فيها آراء الدكتور إسماعيل السياسية التي كانت تطرح عبر وسائل الاعلام.

ووصل بي القرف من هذه المعركة المحتدمة بين الرجلين الى حد الإمتناع عن دعوتهما الى منزلي، واتخذ مثل هذا الموقف أصدقاء آخرون لهما عجزوا مثلي عن التوفيق بينهما. ولم يكن لائمو شريف قليلين لطرده إسماعيل من بيته، وصارت الألسن تلوك سمعة ابنته ناهده وتتحداها سرا للعثور على زوج أفضل من إسماعيل مظهرا ومركزا وحسبا، فمما لاشك فيه أن المعجبين بأستاذ العلوم السياسية كانوا كثرة، لاسيما بين النساء.

ولكن الأمور لم تقف عند هذا الحد، بل حدث ما لم يكن بحسبان أحد، حيث كان إسماعيل يدبر خطة أخرى للإنتقام من شريف من وحي سلسلة المفاتيح التي وقعت خطأ في يده والتي لم يعدها لصاحبها، مدعيا أنه ألقى بها أرضا بعد مغادرته مطرودا بيت شريف في سورة الغضب التي اجتاحته آنذاك. ورغم أن الكاتب أرسل للسياسي بسلسلة مفاتيحه إلا أن الأول تشبث بمفاتيح غريمه إذ شعر أن فيها أمله الوحيد بالإنتقام منه، دون أن يعرف كيف ولا متى.

وذات يوم علم إسماعيل أن عدوه سيسافر الى الخارج في رحلة طويلة ترافقه فيها زوجته وابنته. وعلم أيضا أن شريف مقبل على نشر رواية جديدة يعلق عليها آمالا كبيرة وأنه يحتفظ في منزله بمخطوط هذه الرواية.

هذان العنصران، الرحلة والكتاب، كانا يشكلان نواة خطة إسماعيل الشيطانية: الدخول الى منزل شريف والاستيلاء على مخطوط الرواية. ومن يدري؟ فلعله يحصل في منزل شريف على سر ما، أو شيء ما، يسمح له بتوجيه ضربة انتقام لغريمه. وكان إسماعيل قد وصل الى حد من بغضه لشريف ومن رغبة بالإنتقام منه جعلته يفقد إتزانه، وكيف لا وقد خلف طرد شريف له من منزله بتلك الشراسة جرحا بليغا في كرامته وكبريائه.

ولم يكن قد مر على سفر شريف وعائلته سوى يوم واحد عندما دار المفتاح في باب منزله بيد اسماعيل الذي دلف الى البيت بحذر شديد، والشمس على وشك البزوغ، وهو لا يكاد يصدق أنه أصبح في منزل عدوه وأن الساحة قد خلت له تماما لينفذ فكرته الجهنمية.

وتعمد إسماعيل دخول المنزل تحت جنح الظلام، وكان يخطط للخروج منه بعد حلول الليل من جديد، حتى لا يلاحظ أحد دخوله أو خروجه.

وتجول في المنزل على هواه فدخل كل غرفة حتى استعصى عليه أحد الأبواب. وأثار ذلك الباب المغلق فضول إسماعيل الذي شعر أن تلك الغرفة تضم كنزه المنشود، فراح يجرب مفاتيح السلسلة الواحد تلو الآخر، حتى دار مفتاح منها في القفل، فدفع إسماعيل الباب بحذر حتى انفتح على مصراعيه، فإذا به في مكتب رائع الأثاث خيم عليه هدوء المعابد وسكينة البراري. كان إسماعيل قد دخل أخيرا مكتب شريف، وكانت لوحة كبيرة تحمل رسم الكاتب معلقة على الحائط وقد أحاط الرسام الوجه بهالة من العظمة وجعل للنظرة درجة من العلياء والترفع، فنظر إسماعيل للوحة بشزر وقال بصوت خفيض مخاطبا الرسم:

- يا وضيع الأصل.

وألقى بنظرة على منضدة المكتب وما تراكم عليها من كتب وأوراق وأقلام وأدوات مكتبية، بدون ترتيب ولا نظام، فهمهم بصوت عال هذه المرة:

- خسارة بك هذا المكتب. إنك تستحق زنزانة في سجن صحراوي.

وراح يقلب ما على المكتب بشيء من الازدراء والقرف قبل أن يجلس على المقعد الوثير. وأخذ يحاول فتح جوارير الطاولة ولكنها جميعا ظلت موصدة في وجهه، الأمر الذي استفزه من جديد فأمطر

شريف بوابل من الشتائم معظمها غير موجود في قواميس اللغة . لجأ الى سلسلة المفاتيح التي كانت بالنسبة له مثل عبارة «إفتح يا سمسم» لعلي بابا، وراح يجربها في الجوارير حتى نجح بفتحها جميعا وغمره شعور بالزهو فردد يخاطب نفسه:

- أجيد فعل كل شيء، حتى عندما أريد أن أكون لصا فإنني أبدع.

ولكنه لم يعثر في تلك الجوارير سوى على ورق، ودفاتر، ومزيد من الورق والدفاتر، وقلب صفحات بعضها فوجد نفسه يطلع على حياة شريف الخاصة ومذكراته الشخصية التي لا يعرفها إنسان غيره، فاستبشر خيرا، ولكنه سرعان ما مل تلك القراءة، إذ لم يعثر على شيء ذي بال، أو سر أو ممسك على شريف يكون وبالا عليه لو أذيع. وعاد يردد بينه وبين نفسه:

- يا لها من مذكرات سخيفة، ويا لها من حياة ضحلة حياتك يا من تتحفنا بروائع المغامرات على الورق.

وسحب آخر الجوارير في المنضدة، وأكبرها جميعا، فعثر فيه على دفتر ضخم خفق له قلبه حال وقوع نظره عليه. فتناوله بين يديه باهتمام شديد وفتح الدفتر بلهفة على صفحته الأولى فقرأ كلمة كتبت بخط اليد من طرف الصفحة الى طرفها الآخر وهي «الغريم». وقلب هذه الصفحة فقرأ في التالية عبارة «الفصل الأول». وارتفع خفقان قلبه إذ عثر على ضالته المنشودة بسرعة وسهولة. كان واثقا من أن ذلك الدفتر يضم الرواية التي تحدثت عنها الصحف في الأيام الأخيرة والتي قالت عنها أنها ستكون الرواية الفاصلة في مسيرة

شريف الأدبية وأنه يتوقع لها نجاحا كبيرا.

وبدون تأخير شرع إسماعيل بقراءة الرواية التي كتبها شريف بخط يده ، وراح يلتهم الصفحات وقد غمره شعور بالنصر انتشى له ايما انتشاء إذ تمكن من اختراق هذا السر الكبير الذي يعلق شريف عليه آمالا كبيرة وإذ وجد أنه أول من يقرأ تلك الرواية وهو أمر لم يكن بالقليل لمثقف مثل إسماعيل.

ولكن نشوته تلك وفرحته الأولى سرعان ما انقلبتا هما وغما، فقد كانت الرواية بمثابة سرد لقصته مع شريف، بحذافيرها، وقد أضيفت إليها أحداث أخرى خيالية. وانهمك إسماعيل في القراءة حتى سرح عن عالمه فما انتبه إلا وقد قرأ مائة صفحة. وجن جنونه، فقد صوره شريف بأرذل الصور ونسب إليه من الفعل والقول ما يندى له الجبين خجلا.

وهب واقفا وقد أخذ منه الغضب كل مأخذ وراح يدور في الغرفة ويطلق الشتائم لشريف بصوت عال وحنق شديد. ثم أخذ يذرع المكتب جيئة وذهابا وقد استغرق في تفكير عميق. وهوى فجأة بقبضته على الطاولة وردد قائلا وهو يعض على الكلمات حتى كادت أن تخرج من فمه مفتتة:

- أيها اللئيم . يا لك من حقير. سألقنك درسا لن تنساه.

ودس إسماعيل دفتر الرواية في حقيبة يد احضرها معه لهذا الغرض بالذات. ونظر الى الساعة في رسغه فوجدها تشير الى الحادية عشر صباحا. وأغلق جوارير منضدة الكاتب وهو يشعر بزهو إذ تمكن من الحصول على بغيته. وكان يفكر بما يمكن له أن يفعله بهذا

المخطوط. لم تكن الفكرة قد اتضحت بعد في ذهنه لكنه كان على يقين من أنه سيتمكن من توجيه ضربة شديدة لغريمه.

وأعاد إسماعيل كل شيء الى ما كان عليه في مكتب شريف ثم غادره الى صالة الإستقبال وقد بدأ يتوق لمغادرة ذلك البيت، ولكنه كان حريصا على انتظار حلول الليل من جديد خوفا من أن يلمحه أحد أثناء مغادرته المنزل.

وراح إسماعيل يجوب الصالة جيئة وذهابا وهو يعمل دهنه لوضع خطة يحقق منها أقصى إستفادة من حصوله على الرواية. وكان أثناء ذلك يحدث نفسه ويتوعد شريف بصوت عال علّه يزيل شيئا من شعوره بالوحشة في وحدته تلك في بيت غريب دخله خلسة تحت جنح الظلام.

وعاد ينظر الى ساعته، مازالت الحادية عشرة والنصف، وفكر انه من المستحيل أن يصبر حتى هبوط الليل في هذا المنزل... ما الذي بامكاني فعله طيلة الساعات المقبلة... انه بيت ممل لأبعد حد. وعقد العزم على مغادرة المكان دون تأخير، آملا بألا يراه أحد أثناء خروجه منه. وحمل اسماعيل حقيبته واتجه نحو باب البيت ليغادره، ولكنه لما مد يده ليفتحه سمع صلصلة آتية من خلف الباب ثم صوت مفتاح يدخل مي قفله الخارجي، فتجمدت الدماء في عروقه وظل متسمرا في مكانه للحظة شل فيها تفكيره، ثم وجد نفسه بعدها يهرول بخفة لا يدري من أين أتته حتى وقف على باب المكتب من جديد، وكان قد أغلقه بالمفتاح، فعاد يحرج سلسلة المفاتيح ليبحث عن مفتاح المكتب، وبدا له أن دهرا قد مر قبل أن يقع عليه ويتمكن من تصويبه بيد

مرتعشة الى ثقب القفل، حتى إذا ما تمكن من فتح الباب والاختفاء بسرعة داخل المكتب مغلقا إياه من جديد كان قد صار في حالة يرثى لها من الهلع. ولاحظ كيف كانت ساقاه ترتعشان من الخوف، فسارع بالقاء جسمه على مقعد شريف ونبضات قلبه تتدافع في صدره بقوة وقد جف ريقه واخشوشن حلقه.

وسمع باب المنزل وهو يغلق بقوة... ياللمصيبة... أيكون شريف وعائلته قد عادوا من السفر قبل موعدهم باسابيع؟... ياالحظي التعيس... يا لها من فضيحة سيعرف بها القاصي والداني. ونهض من مجلسه وارهف السمع من خلف باب المكتب حتى سمع وقع خطوات... خطوات إمرأة... نعم إنها خطوات إمرأة... يا إلهي!، هل عادت زوجته لوحدها، أو... لربما تكون ناهده... ناهده قد عادت وستجدني هنا مختبأ كاللص... يا للمصيبة... الإنتحار... لم يبق لي سوى الإنتحار. ولكن كيف؟ وليس معي من حبل ولا مسدس ولا شئ انتحر به. كيف تجرأت على دخول هذا البيت دون ان أفكر بكل الاحتمالات، بما فيها الانتحار. انني لغبي حقا... غبي... دائما هكذا غبي.

وانتشلتهُ من أفكاره تلك صوت المرأة المجهولة وقد انطلقت تغني بكل قوتها: - دا مستحيل / قلبي يميل / ويحب غيرك أبدا أبدا / أهو دا اللي مش ممكن أبدا /. ولم يكن ذاك صوت ناهده ولا صوت أمها، فإنه يعرف صوتيهما. من هي هذه المرأة ؟ من تكون؟ .

ولم تكن المرأة تكف عن الغناء، متنقلة من أم كلثوم إلى شادية، مرورا بعبد الحليم وباقي الشلة، وكان صوتها ينم عن شباب دفاق

وجمال أخاذ. وهدأ صوتها من روع إسماعيل فثبتت ساقاه وارتد ريقه يبلل حلقه وعاد نبضه إلى حالته الطبيعة. ولكن ذلك الصوت البديع لم يكن ليزيح عنه قلقه، فالمرأة لم تكن تكف عن التنقل في أرجاء المنزل، وكان يخشى أن «تطب» عليه في مخبأه ذاك، فتكون الطامة الكبرى التي لا يرفع رأسه بعدها وإلى الأبد. ترى ماذا سيقول الناس وماذا ستنشر الصحف وتبث الإذاعات عنه لو أن هذه المرأة عثرت عليه الآن؟: المفكر اللص؟!... الكاتب المجرم؟!... أستاذ الجامعة الحرامي؟!... السيد المحترم الذي يسطو على البيوت في غياب أصحابها؟!. وحانت منه التفاتة إلى رسم شريف، فخاله غارقاً في الضحك... إلى متى سيحالف الحظ هذا الرجل؟ مذ عرفته لم يجلب لي سوى النكد... أما هو فكما هو... لم أستطع أن أمس له شعرة... بينما أنا أتنقل من فضيحة إلى أخرى... هؤلاء الروائيون أدهى بكثير مما يبدون عليه من سذاجة الأطفال وحماسة المراهقين... إنهم الدهاء بعينه... وكيف لا وهم آلهة الخيال... والخيال هو المادة الأولية للدهاء ولكل آفة أخرى تخطر على العقل... بل أنه المادة الأولية للعقل نفسه. ألا لعنة الله عليك مجددا أينما حللت... متى سأفرح بمصيبة تحل على رأسك.

وأفاق من أفكاره هذه مذعورا من جديد، فقد اقبلت المرأة نحو باب المكتب وحاولت فتحه بحركة عنيفة انخلع له قلبه، فراح يفرك يديه بجزع شديد، ولاحت له صورته على الصفحات الأولى من صحف الغد وفوقها عناوين مخزية. والتفت فيما حوله يبحث عن مخبأ إذ سمع مفتاحا يدخل قفل الباب ثم يدور فيه. وظل إسماعيل متسمرا في مكانه، فلم يكن هناك ثمة مكان يختبأ فيه. وما أن فتحت

المرأة الباب حتى قفز مختبئا خلفه. وكان على إسماعيل ان ينتظر لعدة دقائق في مكانه ذاك، دون أن يدخل المكتب أحد، رغم أنه كان مفتوحا. حتى أطل من الباب سطل ماء ثم المرأة التي تحمله. ولم تلاحظ وجوده. وكما توقع فقد كانت شابة ذات جسد متناسق تماما، أما وجهها فلم يكن قد رآه بعد.

ولما كان من البديهي أن المرأة ستراه خلال الثواني التالية، ولما لم يعد يطيق قوة نبضات قلبه، فقد وثب عليها وأغلق فمها بإحدى يديه فاستدارت نحوه مذعورة ولكن يده منعتها من الصراخ بينما كان يشير إليها بيده الأخرى بالتزام الصمت. وخطر له اثناء امساكه بها بتلك الطريقة الغريبة أنه وثب عليها كمجرم عتي وأنه كان على وضعه ذاك قد افتتح عهدا جديدا في حياته من الاجرام والسجون، ووجد نفسه يشعر بالهلع اذ تساءل في خضم تلك الافكار ان كان سينتهي به الأمر الى قتل تلك المرأة التي لم يسبق له ان رآها من قبل. وتساءل أيضا كم من جرائم القتل بدأت بمثل وثبته تلك!.

ومرت عليهما لحظات على هذا الوضع، انتظر خلالها إسماعيل أن تسترد المرأة السيطرة على أعصابها بعد هول المفاجأة. فلما بدا له أنها استعادت رباطة جأشها رفع يده عن فمها ببطء فإذا بها، وكأن المفاجأة لم تروعها، تسأله بصوت هادىء ، كله جدية وثبات:

– من أنت؟ كيف دخلت الى هنا؟ ماذا...

واستوقفها إسماعيل بلطف وقد استرد فجأة اتزانه وهدوءه، بينما كانت عيناه تنغرسان بعينيها العسليتين اللتين تشعان ذكاءا وقوة، وقال لها بصوت رقيق:

- ستعرفين كل شيء. تمهلي.

إلا أنها ردت عليه بحزم وهو يتأمل وجهها القمحي الذي لم يكن يخلو من جمال جذاب، رغم ما كانت عليه في تلك اللحظات من إهمال لمظهرها، فقالت:

- قل لي من أنت أو أخبر الشرطة حالا بوجودك.

وابتلع ريقه وهو يسمع تهديدها، ولكنه قرر أن يعاملها بكل رقة ممكنة، لعله يصل معها الى حل لتلك المصيبة، وكان يعتبر نفسه أخبر الرجال بمعاملة النساء ، فسألها بدوره:

- هل أنت المسؤولة عن البيت في غياب عائلة الزياتي؟.

وتعمد أن ينطق بوضوح وبطء كلمة «مسؤولة» إمعانا في التملق. ولكن المرأة، التي قدر إسماعيل أنها تناهز الثلاثين من العمر، لم تكن بالسذاجة التي افترضها فيها، فردت عليه قائلة بنبرة قوية:

- نعم إنني، كما تقول، حضرة المسؤولة، فهل لي أن أعرف ما هي مسؤوليات حضرتك، إضافة الى سرقة المنازل؟.

وكان من الواضح أن المرأة لم تكن مقتنعة بما قالته، فلم يكن مظهر إسماعيل يوحي بأنه يمت لعالم اللصوص بصلة، اللهم إلا علاقته بالسياسة من باب عمله الاكاديمي فيها. وفكر الرجل لوهلة أن يكذب عليها وألا يخبرها عن هويته الحقيقية، ولعله يستطيع بعد ذلك أن يغريها بمبلغ من المال لقاء صمتها. غير أنه وجد نفسه يقول لها مدافعا عن نفسه:

- أنا لست لصا. إنك لا تعرفين مع من تتكلمين.

وعادت تلح عليه بقوة وتهديد، مع كثير من اللباقة هذه المرة:

- إذن فقل لي من أنت أو اضطر للتصرف بما لا يرضيك.

وزادت عبارتها الأخيرة هذه من أمله بأن التفاهم معها لن يكون صعبا، فطلب منها الجلوس على كرسي شريف الوثير، ولم تبد ممانعة إذ أدركت بحاستها السادسة أن خلف الرجل قصة كبيرة لا علاقة لها بمجرد لص عادي. فقال إسماعيل وهو يقف أمامها كطفل اقترف ذنبا ووقف حيال والدته ليعترف لها به:

- إنني الدكتور إسماعيل ولي علاقة وطيدة بشريف.

وحال سماعها اسمه هبت السيدة واقفة وهي تردد بكثير من الدهشة:

- حقا ؟ نعم ، إنك الدكتور إسماعيل، لقد عرفت وجهك حالما رأيتك، ولكنني لم أكن أذكر صاحب الوجه. لقد شاهدتك على شاشة التلفزيون وفي الصحف أكثر من مرة. لكن شدة المفاجأة...

توقفت المرأة لحظة عن الكلام، ثم ضربت بيدها على ظهر يدها الأخرى وعقدت ما بين حاجبيها بقوة وهتفت تقول بانزعاج شديد:

- الدكتور إسماعيل بعظمته مختبيء هنا كاللص!؟. يا للعار.

وسارع ليقاطعها قائلا بحرارة من ثلمت كرامته:

- أرجوك ألا تتسرعي بالحكم علي ففي الحياة مواقف تضع الإنسان عنوة في غير مكانه. أرى أنك تعرفينني وصدقيني يا سيدة...

- آنسة فاطمة.

- صدقيني يا آنسة فاطمة أن معرفتك لي تزيد من خجلي وتجعلني

أتمنى لو أن هذا اليوم ما كان، أو أن أكون قد مت قبله.

كان إسماعيل يتحدث من صميم قلبه وقد بلغ منه الأسف والندم مبلغا عظيما وهو يرى الموقف المهين الذي انحط إليه وهو ما يزال أمام امرأة واحدة، وهاله التفكير بأن ملايين البشر سيعرفون غدا أنه مجرد لص وضيع.

لكن صدق نبرته مس شغاف قلب المرأة التي كانت تنظر اليه بعينين ملؤهما الشفقة. وفكرت أن الرجل ليس شريرا ولا أفاكا وإلا لحاول إلحاق الضرر بها في ذلك الموقف المرير، من أجل انقاذ نفسه. ولو أراد قتلها في تلك اللحظات، وفي ذلك البيت الخالي، لما منعه أحد. وقالت له بعد لحظة صمت خيمت عليهما والتقت خلالها عيونهما بقوة التفاهم الذي بدأ ينمو بينهما:

- لقد كان السيد شريف شرسا معك للغاية عندما طردك من منزله بعد قدومك لخطبة ابنته.

وهز إسماعيل رأسه بالايجاب وتمتم قائلا:

- إنك تعرفين كل شيء.

- نعم. ولشدما رثيت لحالك بعد تلك الليلة ولكل مادار عنك من حديث وإشاعات.

ووجد إسماعيل في كلامها هذا علامات واضحة على اهتمامها به، فاطمأن قلبه بعض الشيء. لكنها سرعان ما غيرت من لهجتها الرقيقة لتعنفه بحنق شديد وقد انتصبت أمامه حتى خالها عملاقة رغم أنها كانت أقصر منه بقليل:

- لقد تصرفت بغباء شديد. كيف عرضت نفسك لذلك الموقف وأنت تعلم تماما كراهية السيد شريف لك وعدم وجود أدنى علاقة لك بابنته، التي بدورها تحتقرك.

- ماذا؟ تحتقرني؟.

- بالطبع. إن لك سمعة اجتماعية غير محمودة وأظنك كسبتها بعرق جبينك، ثم أن ناهدة تحب والدها حد العبادة وتصدق كل ما يقوله عنك من فظائع .

وبدأ إسماعيل يتساءل عما إذا كانت فاطمة هذه عاملة تنظيف في منزل شريف حقا، فقد كان حديثها ومنطقها وقوة شخصيتها تنم عن امرأة مثقفة ومصقولة. فقال لها:

- إن أعدائي كثيرون يا آنسة فاطمة، بحكم مركزي وشهرتي، فأرجوك ألا تصدقي كل ما تسمعينه عني من «فظائع» لأن معظمها مختلق من طرف شريف وأمثاله.

ولم تفارق فاطمة لهجتها المتشددة فسألته بحزم وقسوة بينما كان هو قد بدأ ينتبه الى جمالها الكامن خلف مظهرها المهمل:

- حسنا. ولكن ما الذي كنت تفعله هنا يادكتور إسماعيل؟ هل جئت لتسطو على بيت غريمك حتى تأتي بعد ذلك لتقول ان ما يقال عنك من فظائع هو من اختلاق أعدائك؟.

وأسقط في يد أستاذ الجامعة والرجل المحنك وهو يرتطم من جديد بحزم فاطمة وثقتها بنفسها، فقال صاغرا:

- لقد جئت الى هنا لأحاول الإنتقام منه بعد ما فعله بي.

وتلعثمت فاطمة وهي تسأله بحماس لم تحاول إخفاءه:

- تنتقم منه؟ كيف؟.

وفهم إسماعيل أن فاطمة لن تكون ضده على طول الخط، فقال وهو يبتسم لأول مرة منذ دخولها المنزل:

- لقد استوليت على روايته الجديدة التي يفكر بنشرها بعد شهور قليلة.

وصمت بعد هذا الجواب المقتضب منتظرا ردة فعلها، وجاءه ردها قاصما إذ قالت:

- يبدو أن اللعبة التي تجري بينك وبين السيد شريف صار لي فيها دور أخشى أن يكون محزنا. السيد شريف أهانك وأنت اقتحمت بيته خلسة كأي لص لكي تنتقم منه. ولقد وضعني القدر بينكما فسأفعل ما يمليه علي ضميري.

قالت ذلك واتجهت مسرعة لصالة الإستقبال فلحق بها إسماعيل دون أن يفهم ما يدور بخلدها فإذا بها تلتقط سماعة الهاتف فتسارعت دقات قلب الرجل وهو يحملق بالأرقام التي كانت تديرها فإذ هي أرقام هاتف الشرطة فاختطف السماعة من يدها وأعادها الى مكانها بسرعة وراح ينظر الى فاطمة في صمت وحنق. فلما وجد أنها لا تنبس بكلمة قال لها بخبث حاول أن يجعله لطيفاً:

- إسمعي يا آنسة فاطمة. من أخبرك أن دورك هو إخبار الشرطة والقضاء على مستقبلي الى الأبد وأنا الذي لم أمسسك بسوء أبدا ؟. إنك بهذه الطريقة ستحولين اللعبة - كما وصفتيها - الى مأساة. يجب أن يكون دورك في هذه اللعبة هو المشاركة باللعب .

- ماذا تقصد؟.

- أقصد أن شريف ينظر لمصلحته هو فقط، وأنا كذلك أنظر لمصلحتي كما ترين. وهذا بالضبط ما يجب عليك أن تفعليه. عليك ان تبحثي فقط عن مصلحتك في هذه اللعبة، أسوة بباقي اللاعبين. فما رأيك؟.

ونظرت اليه فاطمة بامعان ويدها على سماعة الهاتف. ومرت لحظات قبل أن تسأله:

- ماذا تقصد بالضبط يادكتور إسماعيل. دعنا من اللف والدوران فأنا لا أجيدهما.

وتنحنح الرجل قبل ان يقول متلعثما:

-أقصد أنني أستطيع أن أدفع لك أي مبلغ لقاء سكوتك.

وفوجئت فاطمة بعرضه السخي هذا وصوبت اليه نظرة ثاقبة ذكرت إسماعيل بنظرات عميد كليته الدكتور عبد الصمد. وخفق قلبه وقد حضره من جديد شبح الفضيحة الآزفة. وساد الصمت بينهما من جديد وهي تنقل نظرها بين أركان الصالة وبين عينيه. أما هو فلم يحول عينيه عنها بانتظار جوابها الذي أصبح في تلك اللحظة عماد حياته أو نهاية مستقبله. وأتيح له في تلك الهنيهة تأمل الأنثى الشابة التي جمعه بها القدر في هذا البيت الخالي إلا منهما، وداعبته فكرة ايقاعها في حبائله فطرد الفكرة في الحال إذ كان موقنا أن فاطمة هي من نوع اللواتي لا يسهل خداعهن. كان وجهها ينم عن جمال مستتر شعر أنه يجذبه اليه بقوة، وكان شعرها الأسود الطويل منسدلاً على كتفيها بصورة عشوائية، ومنه خصلتان مالتا على جبينها بدون

انتظام . وفي اللحظة التي فتحت فيها فمها لتتكلم كان إسماعيل يتأمل شفتيها المحمرتين دونما أحمر شفاه، وتمنى قبلة منها توقظه من هذا الكابوس. ولاحظت فاطمة تأمله لها عندما قالت بشيء من الانوثة والدلال وكثير من الحزم والجدية:

- أتعرف يادكتور إسماعيل؟، إنني لا ألعب أبدا. لذلك لا تحاول أن تقنعني بأن أشترك بلعبتكم السخيفة هذه من اجل حفنة من النقود.

وصمتت من جديد وراحت تتجول في أنحاء الصالة وقد استغرقت بالتفكير. ولم يقل شيئا إذ لاحظ أنه كان لديها المزيد من الكلام، غير أنه عاد يتأملها كأنما كان يكتشفها لأول مرة. وبدت له في تجوالها المتئد إمرأة رائعة حسنا وعقلا، وخطر له أنها لولا انتماؤها الى طبقة بعيدة عن وسطه الإجتماعي وعن نسبه الرفيع ومركزه الخطير لما كان من المستبعد أن يضمها الى قائمة النساء في مذكراته وفي دفتر الهاتف في جيبه. وبدا لوهله وكأنه قد نسي أن مستقبله يعتمد على كلمة منها.

وجاءه صوتها دافئا هذه المرة وقد وقفت أمامه مثبتة نظرها في عينيه، دون تردد ولا وجل:

- ولكنني سأعمل بنصيحتك وأنظر لمصلحتي.

ولم يفهم إسماعيل مقصدها بينما وجدها تبتسم بشكل صريح هذه المرة وتقول له مشيرة الى مقعد قريب منه:

- لم لا تجلس يا إسماعيل؟. هل تسمح لي أن أناديك باسمك فقط دون «سيد» أو «دكتور»؟.

وانتاب إسماعيل عجب شديد من لهجتها الجديدة، ولم يسعده

أن تخاطبه عاملة التنظيف في بيت شريف مخاطبة الند للند، رغم علمها بمقامه ومركزه... ولكن باللعنة... أي مقام وأي مركز تبقى لي بعد اليوم وقد أصبحت تماما في قبضة يدها وتحت رحمتها. وشعر الرجل بأنه عاجز تماما عن قياس مدى ذكاء هذه المرأة وفكر بأنّها أول امرأة من فئتها الإجتماعية يعاملها معاملة الند للند، وفي مثل هذا الظرف الخطير الذي جمعهما في تلك اللحظات.

وجلس على المقعد الذي أشارت إليه وقد بدأ يشعر بأن أعصابه كانت تعبة للغاية. وجلست هي على المقعد المقابل له فلمح دون نية مسبقة شيئا من فخذيها، ولاحظت هي نظرته تلك فشرعت تغطي ركبتيها بطرف فستانها ما استطاعت واعتنت بذلك أشد عناية حتى بلغ الحرج من إسماعيل مبلغه وصار لا يدري إلى أي جهة يوجه نظره. ولما عاد بنظره اليها وجدها تمد له علبة سجائر، فالتقط واحدة منها بكل عناية وأخرج من جيبه قداحة وأشعلها وهو يكيل لها عبارات الشكر. وتساءل من جديد ما الذي تريده منه.... أتحتاج الى أن أجلس وأشعل سيجارة كي تهدأ أعصابي قبل أن تصارحني بما تريد!. لابد وأنها ستطلب شيئا في غاية الخطورة.

وعادت تسأله من جديد بنفس الدفء والجدية:

– الهذه الدرجة تتمسك بأن أناديك بالسيد وبالدكتور؟.

فسارع يقول لها بحرارة، وكان قد نسي طلبها ذلك لشدة ما اضطربت أفكاره:

– كلا. إطلاقا. بل يسعدني أن تناديني باسمي وأن أناديك باسمك يا فاطمة.

ثم استطرد وقد أضفى على صورته نبرة حميمة:

- ولكن قولي لي ماذا تريدين لقاء هذا الجميل الذي أطلبه منك؟.

- أنت تعرف يا إسماعيل بصفتك إنساناً ذا ثقافة عالية وصاحب درايه واسعة بالنساء...

وتململ إسماعيل في مقعده إذ سمع العبارة الأخيرة وهم بالكلام، ولكنها تابعت دون توقف:

- أن امرأة عاقلة لا يشكل المال بالنسبة لها كل شيء.

وبدت على إسماعيل علامات المفاجأة من جديد. ولكنه ظل صامتا بانتظار أن تبوح له بمطلبها. ولما لم يقل شيئا تابعت فاطمة تقول وقد اشتد صوتها دفئا وعذوبة دون أن تتزحزح قيد أنملة عن جديتها:

- لقد وضعنى الله بينك وبين السيد شريف ووضعك تماما تحت رحمتي، ولا مفر لك من تلبية طلبي إلا إذا فضلت أن تتولى الشرطة أمرك ويعلم بسرك الناس جميعا.

وارتعدت فرائص إسماعيل إذ سمع هذا التهديد الصريح ولم يملك أن ناشدها بصوت متهدج:

- أطلبي ولن أرد لك طلبا.

- أن تتزوجني.

ولم يصدق إسماعيل ما سمعه، فسألها مشدوها وقد ارتخى فكه السفلي:

- ماذا تقولين؟.

- لقد سمعتني جيدا .

- تريدين أن أتزوجك؟.

- نعم. ما الذي يدعو للعجب في طلبي هذا؟.

وهب إسماعيل من مقعده واقفا وراح يجوب الصالة جيئة وذهابا وهو يهتف:

- لقد ذهبت بعيدا جدا يا آنسة فاطمة. إنك لا تدركين ما تقولين. ما شأن الزواج بما نحن فيه!.

وجاءه صوتها هادئا ناعما:

- أنت الذي ذهبت بعيدا جدا عندما دخلت هذا المنزل بغياب أهله، ولكنك ستؤول الى أبعد من هذا بكثير لو رفضت طلبي.

فعاد نحوها بخطى سريعة وجلس على نفس مقعده نصف جلسه وشبك يديه وراح يهزهما بشدة إلى اعلى وأسفل، تماما كما فعل يوم جلس في نفس تلك الصالة مع شريف، وقال لها مبتهلا وقد احتقن وجهه:

- إنني مستعد أن أعطيك كل ما تطلبين، بل وأن أساعدك على الزواج بمن هو أفضل مني. أطلبي أي شيء ولكنني أتوسل اليك أن تتخلي عن طلبك هذا.

فنظرت اليه مليا بعينين تنطقان بالأنوثة والكبرياء معا:

- قلت لك أن الأموال لا تهمني، ولا أريد زوجا غيرك. والآن إسمعني جيدا، ولعله من القبيح أو المستهجن أن تقول امرأة لرجل لا تعرفه سوى منذ لحظات ما سأقوله لك الآن.

وازدرد إسماعيل ريقه إزاء المفاجأة الآزفه، واستطردت هي تقول

بعد أن صمتت للحظة استجمعت بها كل شجاعتها:

- بادئ الأمر لم أعرفك عندما فوجئت بوجودك هنا إلّا أنني سرعان ما تذكرت وجهك رغم أنني لم أبح لك بذلك.

وصمتت من جديد لتلقط أنفاسها المتهدجه ثم استطردت تقول:

- منذ أن بدأت مشاكلك مع السيد شريف وسيرتك في هذا البيت لا تنقطع، وكنت دائما ترسم بمظهر الشرير الماجن. غير أني قرأت لك الكثير من المقالات وسمعت احاديثك عبر الإذاعة والتلفزيون فلم أكن أجد فيك سوى العلم والعقل الراجح والشخصية الساحرة.

وتوقفت إذ تململ إسماعيل في جلسته وهز رأسه ورفع حاجبيه واغمض عينيه تواضعا وهو يسمع تغزلها به. واستأنفت تقول بشيء من الصعوبة والخجل:

- كنت أتسقّط أخبارك وكان يؤلمني جدا ما يقال عنك في بعض المجالس. لقد ملأت علي تفكيري، والآن أجدك أمامي ولا أصدق نفسي.

ولم تقو على متابعة حديثها فصمتت وقد احمر وجهها خجلا.. وكان وقع المفاجأة على إسماعيل شديداً لا يمكن اخفاؤه. إذن هذه المرأة الجالسة أمامه والممسكة بزمام مستقبله تحبه... إنها لم تقلها صراحة بل بأكثر من الصراحة... وحار جوابا، وبادلها الصمت بالصمت متحاشيا النظر الى عينيها.

وماهي إلا دقيقة حتى جاءه صوتها من جديد وقد اتخذ نبرة الحب:

- أعرف تماما أنني لست من مستواك ولكنني متأكدة من أنك بحاجة الى المرأة التي تحبك وتفخر بك وليس الى المرأة التي تحبها وتستعبدك بجمالها وحسبها.

كانت مفاجأة إسماعيل في ازدياد، ومست كلمات فاطمة الأخيرة شغاف قلبه بصوتها الصادق والمفعم بالحب. وأدرك تماما أنها امرأة يتمناها الرجل زوجة له، ولكنه تذكر انها خادمة شريف. فصمت مفكرا على غير هدى ثم قال:

- كلامك يا فاطمة يتمناه كل الرجال، مهما كان مركزهم أو مستواهم. ولكن الأمر هنا ليس مسألة مستواي ومستواك، بل هي ظروفي التي لا تسمح لي بالزواج في الوقت الحاضر.

- إذن أنتظرك كل العمر.

وأسقط في يد الرجل. شعر أنه ليس أهلا لكل هذا الحب. ولما رفع نظره اليها من جديد وجد دموعا تترقرق في عينيها، وشعر أنها بحاجة ماسة لجواب، وأن مصيرها قد أصبح معلقا بكلمة منه، فأي موقف ذاك الذي زجه به قدره؟ كل حياته أصبحت رهن كلمة منها وكل مستقبلها رهن بكلمة منه.

وظلا صامتين، فلم تكن فاطمة قادرة على النطق بكلمة واحدة، بعد كل الجهد الذي بذلته للتغلب على نفسها كي تبوح له بحبها الذي ترعرع في قلبها حتى قبل أن تلتقي به. أما إسماعيل فقد كان مستغرقا بالتفكير بحياته التي انتهت به الى هذا المأزق الخطير. وتذكر كم من النساء طرد من حياته طردا، وكم من قلب امرأة خلفه يبابا، وكم من فتاة ضيع مستقبلها في ماضي حياته، حتى ألقاه قدره بين

يدي فاطمة، حتى تثأر لهن جميعا منه. غير انه لم يكن يشك أبدا في صدق مشاعرها نحوه وهو الذي لم يصدق من قبل أبدا كلام الحب الذي ألقته على مسمعه نساء كثيرات خلال العشرين سنة الأخيرة، وفي ظروف وأوقات أشد من هذا الظرف وهذا الوقت إيقادا لنار الحب ولواعجه. ورغم ثقته بصدق مشاعرها فقد أراد - وهو الرجل الخبير والمجرب - أن يتأكد نهائيا من هذا كله. فوجد نفسه دون تفكير طويل بهذه المناورة يقول لها بجفاف:

- إتصلي بالشرطة يا آنسة فاطمة فلست بالرجل الذي يتزوج بخادمة شريف بعد أن أتيحت لي فرصة الزواج بأكبر سيدات المجتمع.

لقد تعمد جرحها بكلامه هذا كي يرى ما تكون ردة فعلها بعد ذلك، وكان يعلم تمام العلم أنه يغامر بكل مستقبله بضربة واحدة، تماما كلاعب القمار الذي يغامر بكل ما يملك في لعبة واحدة لا تستمر لأكثر من دقيقة. وما أن نطق بكلمته الأخيرة حتى نهض واتجه نحو غرفة الحمام وهي صامتة واجمة وقد وقعت عليها كلماته وقْع الصاعقة.

وراح الرجل يغسل وجهه بالماء البارد حتى انتعش وذهب عنه تشنجه وتوتره، وكان يشعر أنه اتخذ أخطر قرار في حياته، ولم يعد يبالي في تلك اللحظات بأشباح الفضائح التي تهدده ولم يعد يحفل بالشرطة ولا بمستقبله. بدا له كأنه كسر مرة واحدة القيود التي كبلت كيانه لسنوات طويلة، وظل حب فاطمة له يناوش قلبه كبصيص أمل وحيد ، وكانت حقا قد بهرته بشخصيتها وأنوثتها. ووقف أمام المرآة يصفف شعره الأسود البراق حتى إذا ما تم له ذلك راح يتأمل نفسه من

جميع الزوايا الممكنة. وكان يريد إعطاء فاطمة فرصة حقيقية للإتصال بالشرطة، وكان أثناء ذلك كله يصيخ السمع كي يعرف ما إذا كانت ستتحدث عبر الهاتف. ومرت برهة غير قصيرة لم يسمع أثناءها أي حركة أو كلام، فعاد الى الصالة بهدوء فوجدها لا تزال جالسة وواجمة كما تركها. ولما بدا له أنها لم تنتبه لوجوده تقدم نحوها وهتف بنبرة آمرة:

- ماذا دهاك؟ هل ستضيعين المزيد من وقتي؟. لماذا لا تتصلي بهم وتريحينني؟.

ولم يتلق جوابا. فاقترب منها وهي ما زالت مطرقة الرأس. وخفق قلبه بسرعة... وتساءل أترى كانت فكرته في محلها؟. وأراد أن يرفع وجهها اليه، فلمس برفق ذقنها ورفع رأسها فهاله ما رآى من بكائها الصامت ودموعها الغزيرة. ونظرت اليه بعينين محمرتين تغشاهما العبرات فأسف أشد الأسف على ما بدر منه من كلام جارح وردد بصدق:

- آسف يا فاطمة. اعذريني.

وأشاحت بوجهها عنه وسارعت تجفف دموعها بكم فستانها ثم نهضت واقفة وهي تقول له وقد اكتسبت لهجتها الحازمة نبرة حزينة:

- بامكانك الإنصراف يا دكتور إسماعيل وأرجوك أن تنسى كل ما قلته لك. كما ترى فإنني لاعبة فاشلة.

وأمسك بكتفيها بقوة وقال لها برقة:

- لا تتسرعي بالحكم عليك ولا بالحكم على غيرك. أأنت متأكدة من أنك ستحفظين سر مجيئي الى هذا البيت اليوم؟.

- سرك محفوظ الى الأبد. وكما قلت أنت، لا داعي لتحويل اللعبة الى مأساة.

وأشار إسماعيل الى حقيبة يده وسألها:

- أتسمحين لي بحمل هذه الأوراق معي؟ إنني لا أريد أن يذهب كل هذا العناء سدى.

فنظرت إليه وقد أخذ منها الغضب مأخذه وهتفت به:

- يؤسفني أن أرى رجلا في مثل ثقافتك وعلمك يتعلق بمسائل تافهة في الحياة .هل يشكل الإنتقام من السيد شريف أهم مسألة في حياتك؟ إن كان كذلك فإن حياتك تافهة ولا أريد أن أجعلك شقيا بحرمانك من أهم شيء في حياتك، فاحمل الكتاب معك إن شئت.

ووسط غضبها اجتاحت إسماعيل رغبة جامحة بأن يغمر وجهها بالقبل وشعر كأنه يعرف تلك المرأة مُنذ سنوات طويلة. وانتشلتهُ عباراتها الأخيرة وغضبها الجامح من غفلته، وانتبه حقا لسخافة فعلته فسارع متوجها لمكتب شريف وأعاد كل الاوراق الى مكانها ثم عاد يجتاز الصالة بحقيبته الخالية فوجد فاطمة تبتسم له راضية، فوقف أمامها وقال لها بشيء من الخجل وكثير من الجد:

- شكرا يا فاطمة. كل كلمة قلتها لي اليوم اصبحت محفورة في ذهني وقلبي.

وتوجه الى باب المنزل وخرج حزينا مثقل الرأس.

ومنذ ذلك اليوم انقلب صديقي إسماعيل، الماجن اللعوب، بشرا سويا، وتحول الى إنسان رزين، مبتعدا تماما عن ماضيه. ولم يعد إلى

إستغابة شريف، بل كان لا يذكره إلا بالخير. ولم تكن هذه هي الأشياء الوحيدة التي طرأت على حياته بل صار يزور فاطمة يوميا في منزلها ويتقرب من والديها ويقضي معهم سويعات المساء. وكان الحب قد اشتعل بقلب صديقي دون رحمة فلم يعد يطيق فراقها. وصار هذا الحب حديث مجتمعنا ولم يخفه إسماعيل رغم ما وصله من تهكم بسببه، وذاع صيت هذا الحب ولم يفهم أحد منشأه ولا كيف تعرف إسماعيل بفاطمة.

وكما قلت لكم، فقد مضى على زواجهما سنة كاملة ولا أعرف زوجين أسعد منهما. يبقى أن أطلعكم على أن صداقة مخلصة بدأت تترعرع بين اسماعيل وشريف بعد أن زرعت فاطمة بذورها في قلبيهما.

1983

فهرس القصص